# تمهيد

- العرب ورسالة الإسلام
- حول السنة
- السنة ومكانتها من القرآن الكريم
- عدالة الصحابة
- حفظ السنة وانتشارها

## العرب ورسالة الإسلام

منذ أربعة عشر قرناً ، بينما كان يعيش العالم كله فى ظلام فكرى ، وتأخر علمى ، وظلم اجتماعى ، أشرقت فى أرض الجزيرة العربية شمس الهداية ، وعلت فى الأفق تطارد ذاك الظلام ، تنير للعالم سبيله ، وترسم له طريق التقدم والرقى والنجاح .

تلك الشمس شمس النبوة التى حملها محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ بعثه الله عز وجل . « **بالحق بشيراً ونذيراً** »(١) ، « **وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً** »(٢).

وشرفه بالرسالة السامية الخالدة ، إلى الناس كافة ..

« **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** »(٣) .

وقال تعالى :

« **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** »(٤) ، « **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً** »(٥) .

وأمره أن يبلغ أحكام الإسلام وتعاليمه فقال : .

« **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدى القوم الكافرين** »(٦) .

ومن فضل الله على الأمة العربية أن بعث فيهم : « **رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين**»(٧)

---

(١) فاطر : ٢٤ .
(٢) الأحزاب : ٤٦ .
(٣) الأعراف : ١٥٨ .
(٤) الأنبياء : ١٠٧ .
(٥) سبأ : ٢٨ .
(٦) المائدة : ٦٧ .
(٧) الجمعة : ٢ .

فأمره أن يدعو أهله وعشيرته ، فقال :

**« وأنذر عشيرتك الأقربين. واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين »(١)**

وقال عـز من قائـل :

**« وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق فى الجنـــة وفريق فى السعير »(٢) .**

أمـره أن يدعو قومه إلى سبيل الرشاد ، ليحملوا عبء تبليغ الرسالة إلى الأمم الأخرى ، فيكون لهم شرف المبلغ الهادى ، ويخلد اسمهم أبد الدهـر ، كما أراد الله للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وللأمة العربية التى تلقت الرسالة ، وانطلقت تحرر العالم من الظلم والطغيان ، وتوجه مركب الإنسانية إلى شاطىء السلام ، وتخرجه من الظلمات إلى النور ، سالكة سبيل الهداية والحق ، حاملة لواء التحرير . . . بعد أن تنكب الناس الصراط المستقيم ، وتخبطوا فى غياهب الجهالة والضلال .

إلا أن هداية العرب لم تكن سهلة ، بل تحمل الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فى سبيلها المشاق الكثيرة ، وأوذى فى جسمه وماله ، وأهله وأصحابه ووطنه ، وكان يدعو ليلا ونهاراً وسراً وإعلاناً ، ويسأل الله السداد والرشاد ، متطلعاً إلى هداية قومه ليحملوا الرسالة ويؤدوا الأمانة .

لقد أوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقومه على دين آبائهم ، وثنية وأصنام ، يسودهم النظام القبلى ، وتربط بينهم صلة القرابة والدم ، لا يحكمهم نظام عام ، بل يخضعون للعادات والأعراف ، يدفعهم الشرف والمفاخرة بالأنساب إلى المنافسة فى المكارم والمروءات ، يعيشون فى حلقة الأسرة والقبيلة ، فى إطار الجزيرة العربية .

وكان لحياتهم تلك أثر بعيد فى صفاء نفوسهم ، ومحافظتهم على أمجادهم وعاداتهم ، وتفانيهم فى سبيل مثلهم الأعلى ، حتى كانوا يسرفون فى ذلك كله ، فهم كرام يبذلون مايستطيعون للضيف ، فيبلغون فى ذلك حد الإسراف .

---

(١) الشعراء : ٢١٤ ، ٢١٥ .  (٢) الشورى : ٧ .

ويأبون العار ولو أدى بأعز ما لديهم إلى الردى ، ولهذا وأدوا بناتهم خشية الفقر والزلل . ويحبون تحقيق الأمجاد والبطولات فتغنوا بها ، ولكنهم ضلوا الطريق ، وحرموا العقيدة الموصلة إلى ذلك ، ترى العفة والكرامة من أخلاقهم ، والكرم والشجاعة من سجاياهم ، والحمية والثأر تسير فى عروقهم ، رضعوا هذا مع لبنهم ، وفطروا ونشأوا عليه ، فهم لا ينامون على ضيم ، ولا يرضون ذلا أو هواناً ، وويل لمن غضب عليه العرب ، إذ كانوا يثورون لأتفه الأسباب ، يكفى أن يستفز القبيلة فرد أهينت كرامته ، فتنطلق جميعها كباراً وصغاراً تدفع عنه ما أصابه ، لأن كرامة الفرد من كرامة القبيلة ، وإلى هذا يمكننا أن نرد أكثر الغزوات والغارات التى كانت بين القبائل قبل الإسلام .

وقد حفظت ذاكرتهم القوية أشعارهم وأنسابهم التى كانت بمثابة سجل تاريخى لهم ، وكان كل ذلك من المؤهلات التى أعدتهم لحمل الرسالة الإسلامية فيما بعد .

وإذا كان العرب قد عبدوا الأوثان آنذاك ، فإنهم لم يعبدوها على أنها هى الخالقة المدبرة لأمور الكون وشئونه ، بل رأوا فيها التقرب إلى الله :

**« ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »(١) .**

ولم تكن عقائدهم معقدة مركبة ، كما كانت عليه عقائد سكان البلاد المجاورة من الفرس والهند والروم ، بل كانوا أصفياء النفوس ، ويمكننا أن نقول : إن عندهم فراغاً عقدياً — إذا صح هذا التعبير — تستره تلك العبادات والمعتقدات الأولية ، التى لم تقف على قدميها أمام عقيدة الإسلام المتماسكة الكاملة ، ولهذا كان العرب يمتازون عن غيرهم من الأمم بتلك الصفات التى أهلتهم فيما بعد لأن يكونوا رجال الإسلام ، وحملة لوائه إلى العالم .

ومع هذا لم يكن من السهل أن يستجيب العرب جميعاً إلى دعوة الرسول الكريم بادىء ذى بدء ، إذ كان من الصعب أن يتركوا دين

---

(١) الزمر : ٣ .

آبائهم وأجدادهم ، فإذا ما دعاهم إلى الله قال له أقرب الناس إليه : تباً لك ! ! أهذا دعوتنا ؟ وأوذى صلى الله عليه وسلم فى سبيل دعوته كثيراً ، وقاسى الصعاب ، ولم يؤمن به إلا نفر قليل : زوجه ، وبعض ذويه ، وقليل من أهله . وكان لا يفتر عن دعوتهم ، ويسخرون منه فيزداد نشاطاً وحيوية وراء أمله ، ويصورهم الله تعالى فى قوله :

**« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون »(١) ، « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون »(٢) .**

إلا أن الباطل لا يقوى أمام الحق ، فسرعان ما يتقوض ، ويظهر ضعفه ، كما يتلاشى الظلام حين يكون وراءه النور الساطع .

ومضى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فى دعوته ، وصبر الصبر الجميل مضطهداً حيناً ، مستهزءاً به أحياناً ، ومع هذا كان يتمنى لقومه الهداية والرشاد ، فيطيب الله خاطره ، ويخفف عنه ، مبيناً أن هدايتهم بيده عز وجل ، فيقول :

**« إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين »(٣) .**

ويصور الله تعالى ضيقه صلى الله عليه وسلم فى سبيل هداية قومه ، فيقول :

**« فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً »(٤) .**

ويؤكد له أنه على حق ، ولابد للحق من أن ينتصر ، فيشحذ عزيمته بقوله عز وجل :

**« فاستمسك بالذى أوحى إليك ، إنك على صراط مستقيم »(٥) .**

---

(١) البقرة : ١٧٠ .
(٢) المائدة : ١٠٤ .
(٣) القصص : ٥٦ .
(٤) الكهف : ٦ .
(٥) الزخرف : ٤٣ .

وهـكذا بدأ الإسلام يستولى على القلوب فى مكة رويداً رويداً ، ثم انتشر بين بعض سكان يثرب ( المدينة المنورة ) ، وازداد إيذاء المشركين للمسلمين واضطروهم إلى هجر وطنهم فراراً بدينهم .

وفتحت المدينة المنورة صدرها رحباً للمسلمين ، وبدأت الدولة الإسلامية تنتظم أمورها برياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتشر خبر الإسلام فى أطراف الجزيرة ، ولم تمنع أضاليل المشركين العرب من الدخول فى دين الله ، دين العدالة والمساواة ، عقيدة سهلة سامية ، إيمان بالله ، وطاعة لرسول الله ، وعبادات تدخل السعادة والطمأنينة إلى النفوس ، نظام يضبط الجماعة ويؤمن حقوق الأفراد . . . كل هذا جعل القبائل العربية تتهافت إلى المدينة من كل حدب وصوب ، يعلنون إسلامهم ، وعم الإسلام الجزيرة العربية بعد الفتح الأكبر ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وانقلبت مكة والمدينة بل الجزيرة العربية إلى موطن إسلامى متماسك تنبع منه أشعة الهداية لتنير العالم .

وقد تم ذلك للرسول الكريم خلال اثنتين وعشرين سنة وبضعة أشهر .

وهكذا خرج العرب باعتناقهم هذا الدين الحنيف من نطاق القبيلة الضيق المغلق إلى صعيد الإنسانية الواسع ، ومن إطار الصحراء إلى العالم الشاسع ، وانقلبت رابطة الدم والقرابة إلى الأخوة فى الدين ، وانتهى نظام القبيلة وحل مكانه نظام الدولة الإسلامية فى مختلف مرافق الحياة ، وانتقلت حميتهم للقبيلة إلى نصرة الحق ، والأخذ بيد المظلوم وإنصافه ، وأصبح اعتزازهم بالإسلام وبما يقدمونه من تضحيات وخدمات فى سبيل ذلك بدلا من اعتزازهم بالأنساب ، واتجه حبهم للأمجاد والبطولات صعداً إلى تحقيق ما يرضى الله ورسوله ، وتحولت شجاعتهم وجرأتهم المحصورة فى النطاق القبلى إلى شجاعة وجرأة فى سبيل نشر الدين الجديد ، وتحول كرمهم الذى بلغ حد السرف إلى إعانة الفقراء وإغاثة الملهوفين ، وتزويد الجيوش للدفاع عن معتقداتهم وعن إخوانهم فى الدين ، وتحرير

الأمم من نير العبودية إلى الحرية وعبادة إله واحد . . . فكان الإسلام شرفاً عظيما لهم ، كما قال تعالى :

**« وإنه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسئلون »(١) .**

والذكر هو الشرف العظيم ، وكان العرب بحق كما قال الله تعالى :

**« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(٢) .**

يتبين لنا مما ذكرت أن هؤلاء العرب الأشداء ، الذين فرضت عليهم الطبيعة الصحراوية حياة خاصة ، قد انطوت نفوسهم على خصال طيبة ، وصفات كريمة ، وميول سامية ، وراءها دوافع قوية ، وحيوية فائقة ، ولكنه كان ينقصهم العقيدة الصالحة ، التى توجههم فى هذه الحياة ، وتؤثر فى جميع تصرفاتهم ، كما كان ينقصهم النظام الحسن ، فما أن وجدوهما فى الإسلام دين الحنيفية السمحة ، والفطرة الصافية ، حتى كانوا خير حافظ لها ، بعد أن آمنوا بها ، وتجاوبوا معها ، وأصبحوا أول داع إليها ، ومن ثم فتحوا قلوبهم للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وأصغوا إليه ، والتفوا حوله ينهلون من المعين الذى لا ينضب ، ويتلقون تعاليم الإسلام من رائده ، ليقوموا بدورهم فى هداية الناس جميعاً ، وهكذا تضافر العامل الفطرى الذى تميز به العرب مع العامل المكتسب الجديد ( الروحى ) ، فظهر الرعيل الأول الذى حمل مشعل النور والحق إلى العالم ، وساهم فى تحرير الإنسان من عبودية الظلم والجهل والفقر ، وأخذ بيده إلى سبيل السداد والرشاد ، ظهر ذلك الرعيل العظيم الذى نقل القرآن الكريم والسنة الطاهرة بكل أمانة وإخلاص .

بعد هذا نتكلم عن السنة وتعريفها ومكانتها من القرآن الكريم ، وعن الصحابة وعدالتهم بما يمهد لنا السبيل إلى البحث .

* * *

---

(١) الزخرف : ٤٤ . (٢) آل عمران : ١١٠ .

## حـــول السنة

السنة فى اللغة هى السيرة حسنة كانت أو قبيحة ، وكل من ابتدأ أمراً عمل به قوم بعده قيل هو الذى سنه . .

قال خالد بن عتبة الهـــذلى :

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها ... فأول راض سنة من يسيرها (١)

وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها . وأجر من عمل بها بعده . من غير أن ينقص من أجورهم شىء . ومن سن فى الإسلام سنة سيئة . كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » (٢) .

وإذا أطلقت السنة فى الشرع فإنما يراد بها ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونهى عنه ، وندب إليه قولا وفعلا . ولهذا يقال فى أدلة الشرع الكتاب والسنة ، أى القرآن والحديث ، ويطلق علماء الحديث لفظ السنة على كل ما يتصل بالرسول صلى الله عليه وسلم من سيرة ، وخلق ، وشمائل ، وأخبار ، وأقوال ، وأفعال ، سواء أثبت ذلك حكماً شرعياً أم لا .

وأما علماء أصول الفقه فإنهم يطلقون لفظ السنة على أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأفعاله ، وتقريراته التى تثبت حكماً شرعياً .

وأما علماء الفقه فقد بحثوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذى تدل أفعاله على حكم شرعى ، وهم يبحثون عن حكم الشرع فى أفعال العباد وجوباً ، أو حرمة ، أو إباحة ، أو غير ذلك . فالسنة عندهم كل ما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب .

---

(١) انظر لسان العرب ، مادة ( سنن ) .

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ، ص ٧٠٥ ، جـ ٢ . وص ٢٠٥٩ ، جـ ٤ .

فأوسع الإطلاقات إطلاق المحدثين ، الذين يقصدون بالسنة كل ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، أو صفة خَلقية ، أو سيرة سواء أكان ذلك قبل البعثة كتحنثه في غار حراء ، أم بعدها ، وسواء أثبت ذلك حكماً شرعياً أم لا .

والسنة بهذا المعنى مرادفة للحديث النبوى .

أما القول فهو أحاديثه التي قالها في مختلف المناسبات ، كقوله : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى . . » ، وقوله : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » ، وقوله : « لا ضرر ولا ضرار » . وقوله في البحر : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » .

وأما الفعل فهو أفعاله التي نقلها إلينا الصحابة ، مثل وضوئه ، وأدائه الصلوات الخمس بهيئاتها وأركانها ، وأدائه صلى الله عليه وسلم مناسك الحج ، وما إلى ذلك .

وأما التقرير فكل ما أقره الرسول صلى الله عليه وسلم ، مما صدر عن بعض أصحابه من أقوال وأفعال ، بسكوت منه وعدم إنكار ، أو بموافقته وإظهار استحسانه وتأييده ، فيعتبر ما صدر عنهم بهذا الإقرار والموافقة عليه صادراً عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك ما أخرجه أبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه خرج رجلان في سفر وليس معهما ماء ، فحضرت الصلاة ، فتيمما صعيداً طيباً ، فصليا ثم وجدا الماء في الوقت ، فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء ولم يعد الآخر ، ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرا ذلك له ، فقال للذي لم يعد : « أصبت السنة » وقال للآخر : « لك الأجر مرتين » .

وقد تطلق السنة في مقابلة البدعة ، فيقال : « فلان على سنة » إذا عمل على وفق ما عمل عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، سواء أكان ذلك مما نص عليه الكتاب أم لم يكن . ويقال : « فلان على بدعة » إذا عمل على خلاف ذلك .

والبدعة لغة هي الأمر المستحدث ، ثم أطلقت في الشرع على كل ما أحدثه

الناس من قول وعمل فى الدين وشعائره مما لم يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ » (١) .

وتطلق السنة أحياناً عند المحدثين وعلماء أصول الفقه على ما عمل به الصحابة ، وجد ذلك فى الكتاب أو السنة أو لم يوجد . ويحتج لذلك بقوله عليه الصلاة والسلام : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين . تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » (٢) .

ومن أبرز ما ثبت فى السنة بهذا المعنى « سنة الصحابة » حد الخمر ، فقد كان تعزير الشارب فى عهده صلى الله عليه وسلم غير محدود ، تارة يضربونه نحو أربعين جلدة . وتارة يبلغون ثمانين . وكذا فى عهد أبى بكر . فلما كان آخر إمرة عمر رضى الله عنه . ورأى الناس فى سعة من العيش . وكاد الشرب يشيع بينهم — استشار الصحابة فى حد زاجر ، فقال على : نرى أن تجلدة ثمانين . لأنه إذا شرب سكر . وإذا سكر هذى . وإذا هذى افترى . وعلى المفترى جلد ثمانين . وقال عبد الرحمن ابن عوف : أرى أن تجعلها كأخف الحدود يعنى ثمانين . وأجمع الصحابة على هذا . فتحديد الثمانين هو السنة التى عمل عليها الصحابة باجتهاد منهم ، حسبما اقتضاه النظر المصلحى .

ومن هذا تضمين الصناع . وجمع المصاحف فى عهد أبى بكر برأى الفاروق . وحمل الناس على القراءة بحرف واحد من الحروف السبعة . وتدوين الدواوين . . وما أشبه ذلك مما اقتضاه النظر المصلحى الذى أقره الصحابة رضى الله عنهم وأجمعوا عليه (٣) .

---

(١) صحيح مسلم ، ص ١٣٤٣ ، ج ٣ .

(٢) أخرجه أبو داود فى حديث طويل عن العرباض بن سارية . انظر سنن أبى داود ، ص ٥٠٦ ، ج ٢ .

(٣) انظر الموافقات للشاطبى ، ص ٤ — ٦ ، ج ٤ . وانظر التمهيد من كتابنا « السنة قبل التدوين » .

وأعنى بالسنة ما أراده المحدثون ، وهى ما يرادف الحديث عند جمهورهم وإن كان بعضهم يفرق بين السنة والحديث ، فيرى الحديث ما ينقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، والسنة ما كان عليه العمل المأثور فى الصدر الأول .

والحديث القدسى هو كل حديث يضيف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا إلى الله عز وجل ، كحديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . .»(١) وحديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هَمَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هَمَّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » (٢) .

والأحاديث القدسية أكثر من مائة حديث ، وقد جمعها بعضهم فى جزء كبير (٣) . ونسبة الحديث إلى القدس ( وهو الطهارة والتنزيه ) ، وإلى الإله أو الرب ، لأنه صادر عن الله تبارك وتعالى ، المتكلم به أولا ،

---

(١) الحديث الرابع والعشرون من الأربعين النووية ، وقد أخرجه الإمام مسلم . انظر صحيح مسلم ، ص ١٩٩٥ ، ج ٤ .

(٢) رواه البخارى ومسلم . انظر صحيح مسلم ص ١١٨ ، ج ١ . وانظر الأربعين النووية ، الحديث (٣٧) .

(٣) جمع الشيخ محيى الدين محمد بن على بن العربى الطائى ، المتوفى سنة ( ٦٣٨ هـ ) ، فى كتابه ( مشكاة الأنوار ) (١٠١) حديث عن الله عز وجل . كما جمع العلامة على بن سلطان الهروى القارى ، المتوفى سنة ( ١٠١٦هـ ) . أربعين حديثاً قدسياً فى كتابه ( الأحاديث القدسية الأربعينية ) . وطبع الشيخ محمد راغب الطباخ الحلبى . هذين الكتابين فى مجلد واحد ، سنة ( ١٣٤٣هـ - ١٩٢٧م ) .

وأما كونه حديثاً ، فلأن الرسول هو المخبر به عن الله عز وجل ، والحاكي له بلفظه صلى الله عليه وسلم ولغته .

بعد هذا أرى من الواجب أن أبين مكانة السنة من القرآن الكريم ، لتظهر لنا أهميتها بالنسبة للشريعة الإسلامية ومصادرها التشريعية .

## السنة ومكانتها من القرآن الكريم

لم يكن للأحكام فى عهد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام مصدر سوى الكتاب والسنة . فى كتاب الله تعالى الأصول العامة للأحكام الشرعية ، دون التعرض إلى تفصيلها جميعها . والتفريع عليها ، إلا ما كان منها متفقاً مع الأصول العامة ثابتاً بثبوتها ، لا يتغير بمرور الزمن . ولا يتطور باختلاف الناس فى بيئاتهم وأعرافهم . كل هذا حتى يحقق القرآن الكريم النهضة الإنسانية الشاملة . والرقى الاجتماعى والفكرى . وينشر العدالة والسعادة . فى كل زمن . ويبقى صالحاً لكل أمة . مهما كانت بيئتها وأعرافها . فتجد فيه ما يكفل حاجتها التشريعية فى سبيل النهوض والتقدم . وإلى جانب هذه الأصول فى القرآن الكريم نجد العقائد والعبادات وقصص الأمم الغابرة . والآداب العامة والأخلاق . .

وقد جاءت السنة فى الجملة موافقة للقرآن الكريم ، تفسر مبهمه ، وتفصل مجمله ، وتقيد مطلقه ، وتخصص عامه . وتشرح أحكامه وأهدافه ، كما جاءت بأحكام لم ينص عليها القرآن الكريم ، تتمشى مع قواعده . وتحقق أهدافه وغاياته . فكانت السنة تطبيقاً عملياً لما جاء به القرآن العظيم ، تطبيقاً يتخذ مظاهر مختلفة . فحيناً يكون عملا صادراً عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وحيناً آخر يكون قولا يقوله فى مناسبة . وحيناً ثالثاً يكون تصرفاً أو قولا من أصحابه صلى الله عليه وسلم . فيرى العمل أو يسمع القول ثم يقر هذا وذاك ، فلا يعترض عليه ولا ينكره ، بل يسكت عنه أو يستحسنه فيكون منه تقريراً .

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين ما جاء فى القرآن الكريم . والصحابة يقبلون ذلك منه . لأنهم مأمورون باتباعه وطاعته ، ولم يخطر ببال امرىء منهم أن يترك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعله . وقد عرفوا ذلك من كتاب الله تعالى . ففيه :

**« إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث**

**فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما »(١) ، « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا »(٢) ، « من يطع الرسول فقد أطاع الله »(٣) ، « وماآتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »(٤) . « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما »(٥) .**

وقوله عـز وجـل :

**« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون »(٦) .**

فأوكل الله عز وجل بيان أحكام القرآن الكريم إلى رسوله ) صلى الله عليه وسلم . وغير ذلك من الآيات الكريمة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه » (٧) ، وقال : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ » (٨) . وقد أجمعت الأمة على العمل بسنة الرسول الكريم .

فتقبل المسلمون السنة من الرسول صلى الله عليه وسلم كما تقبلوا القرآن الكريم ، استجابة لله عز وجل وللرسول الأمين ، لأنها المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم بشهادة الله عز وجل ورسوله . وإذا اعتبرنا السنة المصدر الثانى ، إنما نعتبرها من حيث إنها مفسرة لكتاب الله ، مفصلة مجمله ، مبينة أحكامه ومقاصده ، مفرعة على أصوله وقواعده ، لهذا كان الكتاب هو المصدر الأول والسنة هى المصدر الثانى ، ومع هذا فإن ما استقلت به السنة من أحكام لم ينص عليها القرآن الكريم ، وليست بياناً له ، ولا تطبيقاً مؤكداً لما جاء فى كتاب الله — لا تقل فى المنزلة عن

---

(١) الفتح : ١٠ .
(٢) المائدة : ٩٢ .
(٣) النساء : ٨٠ .
(٤) الحشر : ٧ .
(٥) النساء : ٦٥ .
(٦) النحل : ٤٤ .
(٧) أخرجه أبو داود فى سننه .
(٨) سنن أبى داود ، ص ٥٠٦ ، ج ٢ .

الأحكام التى نص عليها الله عز وجل فى القرآن الكريم . ذلك لأن ما يسنه الرسول عليه الصلاة والسلام لا يكون إلا حقاً ، والله عز وجل لا يقر الرسول صلى الله عليه وسلم على اجتهاد خطأ ، بل ينزل الوحى ويصحح له اجتهاده ، فكل حكم ثبت من طريق السنة وجب اتباعه . لأنه حكم الله لعباده على لسان رسوله . وقد ثبتت عدة أحكام بالسنة من غير أن ينص عليها الكتاب الكريم ، كتحريم أكل الحُمر الأهلية . وكل ذى ناب من السباع ، وتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها (١) . ولم يفكر مسلم فى ترك بعضها لأنها لم تذكر فى الكتاب ، بل استجاب لذلك جميع المسلمين مطبقين أمر الله عز وجل فى اتباع سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى نزل فيه قول الله عز وجل :

**« وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى »(٢) .**

قال ابن قيم الجوزية : ( وقال تعالى :

**« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا »(٣) .**

فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله ، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً ، سواء أكان ما أمر به فى الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنه أوتى الكتاب ومثله معه ، ولم يأمر بطاعة أولى الأمر استقلالا ، بل حذف الفعل وجعل طاعتهم فى ضمن طاعة الرسول ، إيذاناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول . فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة ) (٤) .

---

(١) انظر الرسالة للإمام الشافعى ، ص ٩٢ وما بعدها ؛ وأعلام الموقعين ، ص ٢٨٨ — ٢٩٠ ، ج ٢ . وأصول التشريع الإسلامى ، ص ٤٢ وما بعدها . وانظر « موضوع السنة ومكانتها من القرآن الكريم » من كتابنا « السنة قبل التدوين » .

(٢) النجم : ٣ ، ٤ . (٣) النساء : ٥٥ .

(٤) أعلام الموقعين ، ص ٤٨ ، ج ١ .

فالقرآن والسنة مصدران تشريعيان متلازمان ، لا تمكن لمسلم ان يفهم الشريعة إلا إذا رجع إليهما معاً ، ولا غنى لمجتهد أو عالم عن أحدهما ، ولا يجرؤ أن يدعى هذا أحد .

فقد فرض الله تعالى الصلاة على المؤمنين ، من غير أن يبين أوقاتها وأركانها وعدد ركعاتها . فبين الرسول الكريم هذا بصلاته ، وتعليمه المسلمين كيفية الصلاة ، وقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » (١) ، وفرض الله عز وجل الحج من غير أن يبين مناسكه ، وقد بين الرسول الأمين كيفيته ، وقال : « خذوا عنى مناسككم » (٢) ، وفرض الله تعالى الزكاة من غير أن يبين ما تجب فيه من أموال وعروض وزروع ، كما لم يبين النصاب الذى تجب فيه الزكاة من كل . وأوكل بيانه للرسول الكريم الذى أوضحه وفصله بسنته . وغير ذلك من الأحكام التى بينتها السنة .

لهذا كله رأينا الصحابة يلتفون حول الرسول صلى الله عليه وسلم يشاهدون بعيونهم ، ويسمعون بآذانهم وتعى قلوبهم ، ويتمسكون بسنته صلى الله عليه وسلم . ولا يفرقون بين ما جاء فى القرآن وما جاء فى السنة . وقد امتثل الصحابة لأوامر الله عز وجل ورسوله ، ونفذوها مخلصين . وحموا الشريعة بالمال والدماء ، فى حياته صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته .

وحافظوا على الكتاب الكريم والسنة الشريفة ، وأبوا أن يكونوا ذلك الرجل الذى ينطبق عليه قوله عليه الصلاة والسلام : « يوشك الرجل متكئاً على أريكته يحدّث بحديث من حديثى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه . وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإن ما حرّم رسول الله مثل ما حرّم الله » (٣) بل وقفوا من

---

(١) أخرجه البخارى فى حديث طويل . انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ، ص ١٢ — ١٢٦ ، ج ١ . وص ٥٢ ، ج ٤ .

(٢) صحيح مسلم ، ص ٩٤٣ ، ج ٢ . وانظر جامع بيان العلم وفضله ، ص ١٩٠ ، ج ٢ .

(٣) سنن ابن ماجه ، ص ٦ ، ج ١ . وسنن البيهقى ، ص ٦ ، ج ١ . رواه المقدام ابن معدى كرب .

السنة موقفاً عظيماً . وردوا على كل من فهم ذلك الفهم . روى أبو نضرة عن عمران بن حصين : « أن رجلا أتاه فسأله عن شيء ، فحدثه ، فقال الرجل : حدثوا عن كتاب الله عز وجل . ولا تحدثوا عن غيره . فقال : إنك امرؤ أحمق ! ! أتجد في كتاب الله صلاة الظهر أربعاً لا يجهر فيها ، وعد الصلوات . وعد الزكاة ونحوها . ثم قال : أتجد هذا مفسراً في كتاب الله ؟ كتاب الله أحكم ذلك ، والسنة تفسر ذلك » (١) .

ونهج التابعون وأتباعهم والمسلمون من بعدهم سبيل الصحابة في المحافظة على السنة والعمل بها وإجلالها . قال رجل للتابعي الجليل مطرف ابن عبد الله بن الشخير : لا تحوثونا إلا بالقرآن . فقال مطرف : « والله ما نريد بالقرآن بدلا . ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا » (٢) .

وأخبار اقتداء الصحابة بالرسول صلى الله عليه وسلم والمحافظة على سنته تفوق الحصر ، وسأورد بعضها على سبيل الذكرى .

أتت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر تطلب سهم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال لها : ( إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله عز وجل إذا أطعم نبياً طعمة . ثم قبضه جعله للذي يقوم من بعده » ، فرأيت أن أرده على المسلمين ) . فقالت : فأنت وما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم (٣) . وقال في رواية : ( لست تاركاً شيئاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به ، وإني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ ) (٤) .

وفي وقعة اليرموك كتب القادة إلى عمر بن الخطاب : ( إنه قد جاش إلينا الموت ) يستمدونه فكان فيما أجابهم : (إني أدلكم على من هو أعز

---

(١) كتاب العلم للمقدسي ، مخطوطة الظاهرية ، ص ٥١ . وجامع بيان العلم وفضله ، ص ١٩١ ، ج ٢ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ، ص ١٩١ ، ج ٢ .

(٣) مسند الإمام أحمد ، ص ١٦٠ ، ج ١ بإسناد صحيح .

(٤) مسند الإمام أحمد ، ص ١٦٧ ، ج ١ بإسناد صحيح .

نصراً ، وأحضر جنداً ، الله عز وجل . فاستنصروه ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم قد نصر يوم بدر فى أقل من عدتكم ، فإذا أتاكم كتابى هذا فقاتلوهم ولا تراجعونى ) (١) .

ويرى عمر رضى الله عنه الناس قد أقبلوا على طيبات الدنيا مما أحل لهم الله تعالى . فيذكرهم برسولهم صلى الله عليه وسلم ، فيقول : ( لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يلتوى ما يجد دقلا يملأ به بطنه ) (٢) .

وقال سعيد بن المسيب : رأيت عثمان قاعداً فى المقاعد ، فدعا بطعام مما مسته النار فأكله ، ثم قام إلى الصلاة فصلى . ثم قال عثمان : قعدت مقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكلت طعام رسول الله ، وصليت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ) (٣) .

وروى الإمام أحمد أن على بن أبى طالب شرب قائماً ، فنظر إليه الناس كأنهم أنكروه ، فقال :(ما تنظرون ؟ إن أشرب قائماً فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب قائماً ، وإن أشرب قاعداً فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب قاعداً ) (٤) .

وقد اشتهر عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بمحافظته الشديدة على سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان الرسول أسوته فى كل شىء ، فى صلاته وحجه وصيامه ، وفى جميع أحواله (٥) ، وكثيراً ما كان يقول :

**« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »(٦) .**

---

(١) مسند الإمام أحمد ، ص ٣٠٤ ، ج ١ . بإسناد صحيح .

(٢) مسند الإمام أحمد ، ص ٣٠٧ و ٢٢٤ ، ج ١ . بإسناد صحيح . والدقل هو ردىء التمر ويابسه .

(٣) مسند الإمام أحمد ، ص ٣٧٨ ، ج ١ . بإسناد صحيح ، والمقاعد مكان فى المسجد كانوا يتوضأون عنده .

(٤) مسند الإمام أحمد ، ص ١٣٠ ، ج ٢ . وص ١٧٩ ، ج ٢ منه أيضاً .

(٥) انظر ما رويناه عنه فى كتابنا « السنة قبل التدوين » فى الباب الثانى ، الفصل الأول « اقتداء الصحابة والتابعين بالرسول صلى الله عليه وسلم » .

(٦) الأحزاب : ٢١ .

قيل لعبد الله بن عمر : لا نجد صلاة السفر فى القرآن ؟ فقال ابن عمر : ( . . . . إن الله عز وجل بعث إلينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولا نعلم شيئاً فإنما نفعل كما رأينا محمداً صلى الله عليه وسلم يفعل) (١)وفى رواية قال : ( وكنا ضلالا فهدانا الله به ، فبه نقتدى) (٢) .

والأخبار عن الصحابة والتابعين وأهل العلم من بعدهم كثيرة جداً ، نختتمها بهذا الخبر ، فقد روى ابن ماجه أن عبادة بن الصامت الأنصارى ، النقيب ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم — غزا مع معاوية أرض الروم . فنظر إلى الناس وهم يتبايعون كِسَر الذهب بالدنانير ، وكسر الفضة بالدراهم ، فقال :( يا أيها الناس ، إنكم تأكلون الربا ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تبتاعوا الذهب بالذهب إلامثلا بمثل ، لا زيادة بينهما ، ولا نظرة » ،فقال له معاوية: (يا أبا الوليد.. لا أرى الربا فى هذا إلا ما كان من نَظِرة)، فقال عبادة :(أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحدثنى عن رأيك ، لئن أخرجنى الله لا أساكنك بأرض لك على فيها إمرة). فلما قفل لحق بالمدينة ، فقال له عمر بن الخطاب :(ما أقدمك يا أبا الوليد ؟ فقص عليه القصة ، وما قال من مساكنته . فقال :(ارجع يا أبا الوليد إلى أرضك ، قبَّح الله أرضاً لست فيها وأمثالك)، وكتب إلى معاوية :(لا إمرة لك عليه ، واحمل الناس على ما قال ، فإنه هو الأمر)(٣) .

أولئك صحابة رسول الله الذين لم يرضوا ترك سنة كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يقبلوا مع السنة رأى أحد مهما كان شأنه ، ومهما علت مكانته ، أولئك الذين حفظوا الحديث النبوى ، ووجهوا

---

(١و٢) مسند الإمام حمد ، ص ٦٨ ، وص ٧٧ ، ج ٨ .

(٣) سنن ابن ماجه ، ص ٧ ، ج ١ . كسر الذهب جمع كسرة ، وهى كالقطعة لفظاً ومعنى . نظرة : انتظار ، أى أجل .

الأمة إلى السبيل القويم ، وحملوا الأمراء على تطبيق أحكام الشريعة ، وأبوا أن يماروا فى دين الله ، صادعين بالحق ، لا يخافون فيه لومة لائم .

وقد كان لهم الفضل الكبير . والشرف العظيم فى حمل أحكام الشريعة وحفظها وتبليغها إلى من بعدهم .

## عـــدالة الصحابة

ولمنزلة الصحابة الكريمة ، وأمانتهم وإخلاصهم ، وحرصهم على الدين وأحكامه ، ودفاعهم عنه ، أجمع أهل السنة على عدالتهم وتوثيقهم جميعاً إلا من ظهر منه ما يجرح عدالته ممن لم يستقيموا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة (١) ، فلا يجوز لأحد أن يتعداهم خشية أن يخالف الكتاب والسنة اللذين نصا على عدالتهم جميعاً .

قال ابن حزم : ( نقول بفضل المهاجرين الأولين بعد عمر بن الخطاب . . ثم بعد هؤلاء أهل العقبة — الأنصار الذين بايعوه بيعة العقبة — ثم أهل بدر ثم أهل المشاهد مشهداً مشهداً ، وأهل كل مشهد أفضل من المشهد الذى بعده حتى يبلغ الأمر إلى الحديبية . فكل من تقدم ذكره من المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم إلى تمام بيعة الرضوان فإنا نقطع على غيب قلوبهم أنهم كلهم مؤمنون صالحون ، ماتوا كلهم على الإيمان والهدى والبر ، كلهم من أهل الجنة ، لا يلج أحد منهم النار ) (٢) .

وقال شارح مسلم الثبوت : ( إن عدالة الصحابة مقطوعة لا سيما أصحاب البدر ، وبيعة الرضوان كيف لا وقد أثنى عليهم الله تعالى فى مواضع عديدة من كتابه ، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فضائلهم غير مرة ) (٣) .

وقد ورد فى الصحابة ما يوجب لهم العدالة ، ويجعلهم فى ذروة الثقة والائتمان . فقد زكاهم الله تعالى ورسوله ، وتقبلت الأمة ذلك بالإجماع ، من هذا قوله عز وجل :

---

(١) انظر « الروض الباسم » ص ١٢٨ — ١٣٠ ، ج ١ . حيث ذكر بعض من جرح من الصحابة وبين وجه الحق فى عدالتهم . وراجع « العواصم من القواصم » لابن العربى ، فإنه تناول أحوال الصحابة وفند بعض الأقوال والطعون ، ووضح ما قيل فيهم ، وأثبت براءتهم . وانظر « العلم الشامخ » ، ص ٣٠٦ وما بعدها .

(٢) ابن حزم ، حيـــاته وعصره وآراؤه الفقهية لأبى زهرة ، ص ٢٥٩ .

(٣) شرح مسلم الثبوت ، ص ٤٠١ ، ج ٢ .

« محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً »(١) .

وقوله عـز وجـل :

« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، ذلك الفوز العظيم »(٢) .

وقوله عـز وجـل :

« والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزق كريم »(٣) .

وقال تعالى :

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً »(٤) .

تلك آيات كريمة تشهد بفضل ومكانة جميع الصحابة ، وهناك آيات أخرى تذكر فضلهم فى كثير من المواقف ، فى الهجرة والجهاد والبذل والغزوات . وإن هذه وتلك أدلة قطعية تنص على عدالتهم ، لقد رضى الله عنهم ورضوا عنه ، فهل بعد ذلك نطلب رضاء الناس عنهم وتعديلهم إياهم ؟.

وأدلة عدالة الصحابة من السنة كثيرة تشهد بفضلهم جملة وآحاداً . وقد أفردت كثير من كتب السنة أبواباً خاصة فى فضل الصحابة .

من ذلك ما رواه أبو سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا أحداً من أصحابى . فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه » (٥) .

---

(١) الفتح : ٢٩ .
(٢) التوبة : ١٠٠ .
(٣) الأنفال : ٧٤ .
(٤) الفتح : ١٨ .
(٥) صحيح مسلم ، ص ١٩٦٨ ، ج ٤ .

ومنها ما رواه عبد الله بن مغفل وأخرجه الترمذى وابن حبان فى صحيحه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله الله فى أصحابى . لا تتخذوهم غرضاً بعدى . فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى . ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

وغير ذلك من الأحاديث التى تدل على أفضليتهم كقوله صلى الله عليه وسلم : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب » وهو حديث صحيح . وفى رواية : « خير الناس » .

فبعد تعديل الله تعالى ورسوله للصحابة . وإجماع الأمة على عدالتهم لا يحتاج أحد منهم إلى تعديل أحد . على أنه لو لم يرد من الله تعالى ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام شىء فى تعديلهم لوجب تعديلهم لما كانوا عليه من دعم الدين والدفاع عنه ، ومناصرتهم للرسول صلى الله عليه وسلم والهجرة إليه ، والجهاد بين يديه ، والبذل السخى من الأموال والأرواح فى سبيل الله والمحافظة على الدين ، والتشدد فى امتثال أوامر الله تعالى ورسوله . واندفاعهم العظيم بصدق وإخلاص وتضحية وجرأة فى سبيل ذلك : فتراهم يوم بدر يقتحمون الموت . ويتسابقون لتنفيذ أوامر القائد العظيم محمد صلى الله عليه وسلم ، من هذا قول سعد بن عبادة الأنصارى : ( يا رسول الله ! والذى نفسى بيده ! لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها (١) ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْك الغماد (٢) لفعلنا ) (٣) . فقد بذلوا نفوسهم للذود عن حياض الإسلام ، وفدوا الرسول صلى الله عليه وسلم بأرواحهم . فإذا ما نزل بهم الخطب فى غزوة أحد رأيناهم يتسابقون للدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذا أبو دجانة يجعل ظهره ترساً لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أثخنته الجراح ، وإلى جانبه

---

(١) أى لو أمرتنا أن نخوض البحر ونعبره بخيولنا لفعلنا .

(٢) برك الغماد : موضع وراء مكة بخمس ليال بناحية الساحل . انظر هامش صحيح مسلم ، ص ١٤٠٤ ، ج ٣ .

(٣) صحيح مسلم ، ص ١٤٠٣ ، حديث ٨٣ ، ج ٣ . ( كتاب الجهاد ) ( غزوة بدر ) .

على يذب عنه بسيفه ، وسعد بن أبى وقاص يرمى بقوسه حتى كتب لهم النصر . . .

فكانوا الأبطال الشجعان فى ساحات الوغى ، والإخوان الأتقياء الرحماء فى ميادين الحياة ، وصدق فيهم قوله تعالى :

**« محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً »(١) .**

أولئكم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين علت نفوسهم ، وصفت قلوبهم ، وسمت مثلهم ، بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان ، فحافظوا على الشريعة بكل ما أوتوا من قوة ، سراً وعلانية حتى إنا نرى بعض من أخطأ منهم كان يقدم نفسه للرسول صلى الله عليه وسلم لينال جزاءه فى الدنيا قبل الآخرة ، من ذلك ما رواه الإمام مسلم بسنده عن بريدة قال : ( جاء ماعز بن مالك إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله . . طهرنى . فقال : « ويحك (٢) ! ارجع فاستغفر الله وتب إليه » قال : فرجع غير بعيد . ثم جاء فقال : يا رسول الله . . طهرنى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويحك ! ارجع فاستغفر الله وتب إليه » قال فرجع غير بعيد . ثم جاء فقال : يارسول الله . . طهرنى . فقال النبى صلى الله عليه وسلم مثل ذلك . حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فيم أطهرك ؟ » فقال : من الزنا ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبه جنون » ؟ فأخبر أنه ليس بمجنون . فقال : « أشرب خمراً » ؟ فقام رجل فاستنكهه (١) ، فلم يجد منه ريح خمر . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أزنيت » ؟ فقال : نعم . فأمر به فرجم . . . ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم جلوس ، فسلم ثم جلس : فقال : « استغفروا لماعز بن مالك » قال : فقالوا : غفر الله لماعز بن مالك . قال . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الفتح : ٢٩ .

(٢) ويح : كلمة ترحم وتوجع ، تقال لمن وقع فى هلكة لا يستحقها .

(٣) فاستنكهه ، أى شم رائحة فمه . من النكهة ، وهى رائحة الفم .

« لقد تاب توبه لو قسمت بين أمة لوسعتهم » ) (١) . تلك هى القلوب المؤمنة ، والنفوس الطيبة الطاهرة ، التى تحرص على حفظ الشريعة وتطبيقها ، مهما تكن نتيجة ذلك .

هؤلاء هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين حفظ لهم التاريخ مآثر خالدة أبد الدهر ، وإن رجالا أوتوا من العزيمة والقوة والتضحية ، والورع والتقوى ما عرفنا — جديرون بكل احترام وحب وتقدير . بل إن حبهم واحترامهم واجب على كل مسلم لما جاء فيهم من آيات كريمة وأحاديث شريفة ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

قال عبد الله بن مسعود : ( من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالا ، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم فى آثارهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم ) (٢) .

وقال التابعى الجليل إبراهيم بن يزيد النخعى : ( لو أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يمسحوا إلا على ظفر ما غسلته التماس الفضل ، وحسبنا من إزراء على قوم أن نسأل عن فقههم ونخالفهم ) (٣) .

وقد أجمع السلف والخلف من الأمة الإسلامية على فضل وإخلاص وأمانة الصحابة وعدالتهم ، وأختم الكلام فى عدالة الصحابة جميعاً بقول الحافظ أبى زرعة الرازى : ( إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول حق والقرآن حق ، وما جاء به حق ، وإنما أدى ذلك كله إلينا الصحابة ، وهؤلاء الزنادقة يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى ) (٣) .

* * *

(١) صحيح مسلم ، ص ١٣٢١ ، حديث ٢٢ ، ج ٣ .
(٢) الموافقات ٧٨ — ٧٩ ، ج ٤ .
(٣) انظر ترجمة إبراهيم النخعى فى كتاب « السنة قبل التدوين » .
(٤) الكفاية ، ص ٤٩ . وللاستزادة راجع ( عدالة الصحابة ) فى كتابنا « السنة قبل التدوين » . حديث بسطنا القول ، ورددنا على من ادعى غير ذلك .

## حفظ السنة وانتشارها

لقد نزل القرآن الكريم منجماً على محمد صلى الله عليه وسلم خلال ثلاثة وعشرين عاماً ، والرسول الأمين يبلغ قومه ومن حوله ، يبين أحكام القرآن ، ويوضح آياته ، ويفصل تعاليم الإسلام ، ويطبق نظامه ، فكان معلماً وحاكماً وقاضياً ومفتياً وقائداً طيلة حياته عليه الصلاة والسلام ، كان المرجع الأول والأخير فى جميع أمور الأمة وأحوالها ، فكل ما يتعلق بالأمة الإسلامية فى جميع شئونها ، دقيقها وعظيمها ، وكل ما يتناول الفرد والجماعة فى مختلف نواحى حياتهم ، مما لم يرد فى القرآن الكريم فهو من السنة ، العملية أو القولية أو التقريرية ، ومن ثم نجد بين يدينا أحكاماً وآداباً وعبادات وقربات شرعت وطبقت خلال ربع قرن ، فلم توضع السنة دفعة واحدة — كما يتصور بعضهم — كمجموعة من الشرائع الوضعية ، أو الأحكام الخلقية ، التى يمليها بعض الحكماء والوعاظ ، وإنما شرعت لتربية الأمة دينياً واجتماعياً وخلقياً وسياسياً فى السلم والحرب ، فى الرجاء والشدة ، وتتناول النواحى العلمية والعملية ، فلم يكن من السهل أن ينقلب الناس آنذاك فجأة ، ويتحولوا بين عشية وضحاها عن تعاليمهم القديمة ، وديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم إلى الإسلام فى نظمه وعقائده وتعاليمه وعباداته .

لقد تدرج القرآن الكريم فى انتزاع العقائد الفاسدة والعادات الضارة المستحكمة ، ومحاربة المنكرات التى كان عليها الناس فى الجاهلية ، وثبت بالتدريج أيضاً العقائد الصحيحة ، والعبادات والأحكام ، ودعا إلى الآداب السامية ، والأخلاق الفاضلة الحميدة ، وشجع الذين التفوا حول الرسول صلى الله عليه وسلم على الصبر والثبات ، وفى هذا كله كان الرسول الكريم يبين القرآن ويفتى الناس ، ويفصل بين الخصوم ، ويقيم الحدود ، ويطبق تعاليم القرآن ، وكل ذلك سنة .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد اتخذ دار الأرقم مقراً له ولأصحابه حين كانت الدعوة سرية ، وفيها تلقى المسلمون تعاليم الإسلام الأولى ، وحفظوا ما تنزل من القرآن ، ثم ما لبث أن أصبح منزل الرسول

صلى الله عليه وسلم فى مكة معهد المسلمين الذى يتلقون فيه القرآن الكريم ، وينهلون من معين السنة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان الصحابة يستظهرون آيات القرآن ، ويتدارسونها فيما بينهم ، ليثبتوا ما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يتذاكرون تفسير ما تلقوه ، وما تفسيره إلا شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الحديث . فحفظ الحديث النبوى كان متمشياً جنباً إلى جنب مع حفظ القرآن الكريم من الأيام الأولى لظهور الإسلام .

ثم أصبح المسجد فيما بعد المكان المعهود للعلم والفتوى والقضاء ، إلى جانب العبادة وإقامة الشعائر الدينية ، وعرض الأمور العامة على المسلمين . واستنفار الجيوش ، واستقبال الوفـــود .

ومع هذا لم يقتصر تبليغ الرسول صلى الله عليه وسلم على مكان محدود ولا على مناسبة معينة ، فقد كان يستفتى فى الطريق فيفتى ، ويسئل فى المناسبات فيجيب ، يبلغ الأحكام فى كل فرصة تسنح له ، وفى كل مكان يتسع لذلك .

وإلى جانب هذا كانت له مجالس علمية كثيرة ، يتخول فيها أصحابه بالموعظة ، فإذا جلس جلس إليه أصحابه حلقاً حلقاً (١) وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « . . إنما كانوا إذا صلوا الغداة قعدوا حلقاً حلقاً ، يقرأون القرآن ، ويتعلمون الفرائض والسنن » (٢) . ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضنيناً بالعلم على أصحابه ، بل كان يكثر مجالستهم ، يعلمهم ويزكيهم .

وكان الرسول الكريم مثالا رائعاً فى تربية الأمة ، يخاطب الناس بما يدركونه ، فيفهم البدوى الجافى بما يناسب جفاءه وقسوته ، ويفهم الحضرى بما يلائم حياته وبيئته ، كما كان يراعى تفاوت المدارك ، وانتباه أصحابه ، وقدرهم الفطرية والمكتسبة ، ويستعمل من الأساليب النظرية والعملية

---

(١و٢) انظر مجمع الزوائد ، ص ١٣٢ ، ج ١ .

ما يحقق مقاصد رسالته . والأخبار فى هذا كثيرة جداً منها : أن فتى من قريش أتى النبى صلى الله عليه وسلم : فقال : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، فأقبل القوم عليه وزجروه ، فقالوا : مه مه ! ! فقال صلى الله عليه وسلم : ادنه ، فدنا منه قريباً . فقال : أتحبه لأمك ؟ قال : لا والله ، جعلنى الله فداك . قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم . قال : أفتحبه لابنتك ؟ قال : لا والله يا رسول الله ، جعلنى الله فداك . قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم . ثم ذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم أخته وعمته وخالته ، وفى كل هذا يقول الفتى مقالته : ( لا والله يا رسول الله ، جعلنى الله فداك ) ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده عليه وقال : « اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصن فرجه » قال الراوى : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء (١) .

لقد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلوباً جعل الفتى يدرك أثر الزنا فى المجتمع ، وكيف أن الناس جميعاً لا يرضونه لأنفسهم وأهليهم كما أنه لا يرضاه هو لذويه ، مما حمله على الاقتناع بالإقلاع عنه . وخير الأمور ما كان الدافع إليه من قرارة النفس .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى التيسير دائماً ، وينهى عن التنطع فى العبادة ، والتضييق فى الأحكام ، وكان فى معاملته للمسلمين جميعاً أخاً رحيما ، ومعلماً متواضعاً حليما ، ويظهر ذلك واضحاً من تتبع سيرته عليه الصلاة والسلام . عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : ( ما خير بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه . وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها ) (١) .

بهذه الروح الطيبة ، والنفس السامية ، والصدر الرحب ، والمنهج التربوى الصحيح كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه

---

(١) مجمع الزوائد ، ص ١٢٩ ، ج ١ .
(٢) فتح البارى ، ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، ج ٧ .

والمسلمين عامة أحكام الإسلام وتعاليمه وآدابه ، ولم يكن بين الرسول الكريم والمسلمين حاجب كالملوك والقياصرة ، بل كان المسجد معهده يعلم فيه المسلمين الشريعة ، وقد يرونه فى الطريق فيسألونه ، فيبش لهم ويجيبهم ، وقد يعترضونه فى مناسكه وحجه ، أو على راحلته ، يستفتونه فيفتيهم ، والابتسامة لا تفارق ثغره ، وقد تكون إجابته لسائل عن مسألة وحوله جمع قليل أو كثير ، وقد يكون على منبر مسجده يبلغ الناس الإسلام وتعاليمه ، ويفصل الأحكام ويشرحها . . فينقل السامعون ما تلقوه إلى إخوانهم وذويهم . . . فإن من سمع وشاهد ووعى ستبقى آثار ما تلقاه واضحة جلية فى نفسه أمداً طويلا ، حتى إذا ما شك فيما سمع عاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليزيل وهمه ، ويثبته على الصواب ، ويرده إلى الحق .

وقد حرص الصحابة على مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأقبلوا على تلقى السنة وتطبيقها من قلوبهم صادقين مخلصين ، بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان ، وعرفوا عظمة الإسلام ، ورأوا فى القرآن المعجزة الكبرى والهداية العظمى ، فامتلأت قلوبهم حباً لله ورسوله ، وتفانوا فى سبيل دينهم ومبادئهم وحماية قائدهم ومعلمهم ، وأخبار بذلهم وفدائهم تكلل جبين التاريخ وتزينه ، وإن التاريخ ليحفظ تلك المفاخر الخالدة من التضحيات العظيمة النادرة .

بهذه القلوب التى امتلأت بالإيمان . وبهذه الروح السامية والحيوية الدائمة أقدم الصحابة على تلقى العلم عن رسول الله الكريم ، فكانوا يتعلمون من النبى صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم آيات معدودات : يتفهمون معناها ، ويتعلمون فقهها ، ويطبقونه على أنفسهم ، ثم يحفظون غيرها ، وفى هذا يقول أبو عبد الرحمن السلمى : ( حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ـ كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما ـ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات ، لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل . . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً )

وكان الصحابة يحرصون على حضور مجالس رسول الله صلى الله عليه

وسلم حرصاً شديداً ، إلى جانب قيامهم بأعمالهم المعاشية من الرعاية والتجارة وغيرها ، وقد يصعب على بعضهم الحضور دائماً ، فيتناوبون مجالسه عليه الصلاة والسلام ، كما كان يفعل ذلك عمر رضى الله عنه ، قال : (كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية ، وهى من عوالى المدينة ، وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوماً ، وأنزل يوماً ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك . . ) (١) .

ولم يقتصر تعليمه صلى الله عليه وسلم على الصحابة وحدهم ، بل كان يعلم النساء أمور دينهم ، ويعقد لهن مجالسهن ، ولم يكن ذلك صدفة أو نادراً ، بل خصص لهن أوقاتاً خاصة يجلسن فيها إليه ويتلقين عنه تعاليم الإسلام ، ويسألنه فيجيبهن ، وفى هذا قالت عائشة رضى الله عنها : ( نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين ) (٢) .

وكان بعض الوفود يقيم عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، يتعلمون أحكام الإسلام وعباداته ، ثم يعودون إلى أقوامهم يعلمونهم ويفقهونهم ، من هذا ما أخرجه البخارى عن مالك بن الحويرث قال : ( أتينا النبى صلى الله عليه وسلم ونحن شببة متقاربون ، فأقمنا عنده عشرين ليلة ، فظن أنا اشتقنا أهلنا ، وسألنا عمن تركنا فى أهلنا ، فأخبرناه ، وكان رفيقاً رحيماً ، فقال : « ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم ، وصلوا كما رأيتمونى أصلى ، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ثم ليؤمكم أكبركم » (٣) .

إن مثل هؤلاء الوافدين الذين أقاموا أياماً خالدة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يمكن أن ينسوا ما تلقوه منه ، بل سيبقى ذلك ثابتاً قوياً فى نفوسهم طوال حياتهم .

---

(١) فتح البارى ، ص ١٩٥ ، ج ١ .
(٢) فتح البارى ، ص ٢٣٩ ، ج ١ .
(٣) صحيح البخارى بحاشية السندى ، ص ٥٢ ، ج ٤ .

وإلى جانب هذه الوفود وتلك المجالس ، كان المسلمون يتلقون السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجوه عدة . منها أن بعض الحوادث كانت تقع للرسول صلى الله عليه وسلم فيبين حكمها ، وينتشر هذا الحكم بين المسلمين ؛ وبعض الحوادث كانت تقع للمسلمين فيسألون الرسول الأمين عنها فيجيبهم ، ومن هذه الحوادث ما يتناول خصوصيات السائل نفسه ، ومنها ما يتعلق بغيره ، وجميعها من الوقائع التى تعرض للإنسان فى حياته فنرى الصحابة لا يخجلون فى ذلك كله ، بل يسرعون إلى رائدهم ومربيهم ليقفوا على حقيقة تطمئن قلوبهم إليها .

إن هؤلاء الصحابة الذين كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمورهم الشخصية التى قد يخجل منها غيرهم ، كانوا لا يحجمون عن سؤاله فى معاملاتهم وعباداتهم وعقائدهم وسائر أمورهم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيبهم على أسئلتهم هذه كلها ويحكم بينهم ، ويبين لهم الحق ، وفى تلك الأجوبة والفتاوى والأقضية مادة كثيرة فى مختلف أبواب كتب السنة ، وهى تؤلف جانباً كبيراً من الحديث النبوى . ويبعد أن ينسى هذه الحوادث من وقعت له وسأل عنها النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنها جزء من حياة السائل ، بل واقعة بارزة من وقائع عمره .

وهناك وقائع شاهد فيها الصحابة رضوان الله عليهم تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى صلاته وصيامه وحجه وسفره وإقامته ، فنقلوها إلى التابعين الذين بلغوها إلى من بعدهم ؛ وهى تؤلف جانباً عظيما من السنة ، وخاصة هديه صلى الله عليه وسلم فى العبادات والمعاملات وسيرته . . .

مما سبق اتضح لنا كيف تلقى المسلمون السنة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعرفنا الروح التى شملتهم ، والدوافع القوية التى حثتهم على تلقى القرآن والسنة وحفظهما ، مما يسمح لنا أن نقول — ونحن واثقون مطمئنون — :

إن السنة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانت محفوظة عند الصحابة جنباً إلى جنب مع القرآن الكريم ، وإن كان نصيب كل صحابى منها يختلف عن نصيب الآخر ، فمنهم المكثر من حفظها ، ومنهم المقل ، ومنهم المتوسط فى ذلك ، ومن ثم نستطيع تأكيد أنهم قد أحاطوا بالسنة ، وتكلفوا بنقلها إلى التابعين الذين نقلوها إلى من بعدهم طبقاً لقوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « تَسمعون ويُسمع منكم ، ويسمع ممن يسمع منكم » (١) .

وقد انتشرت السنة فى عهده صلى الله عليه وسلم ، بما كان له من جد ونشاط فى تبليغه ، وبواسطة أصحابه ، ولا ننس أثر أمهات المؤمنين فى نشر السنة بين النساء ، وأثر بعوثه وولاته ورسله ، وما كان لغزوة الفتح من أثر بعيد فى نشر بعض السنن ، ثم ما كان لحجة الوداع من أثر عظيم وبعيد فى نشر كثير من الأحكام والسنن ، كما انتشرت السنة بواسطة الوفود الكثيرة التى قدمت بعد الفتح الأعظم وحجة الوداع . كل تلك العوامل كفيلة بنشر السنة وتبليغها المسلمين فى مختلف أرجاء الدولة الإسلامية آنذاك (٢) ولم ينتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن انتشر الإسلام فى الجزيرة العربية كلها ، وساد ربوعها ، وملأ القرآن والسنة صدور أهلها . مصداقاً لقوله عز وجل :

**« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً »(٣) .**

وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم حرص الصحابة والتابعون على الاقتداء بالرسول والتمسك بسنته ، وقوفاً عند وصيته عليه الصلاة والسلام : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى » واحتاطوا فى رواية الحديث ، وتتبعوا آثار الرسول صلى لله عليه وسلم ، وأبوا أن يخالفوها متى ثبتت عندهم ، كما أبوا أن ينحرفوا عن شىء ، فارقهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . واتبعوا كل سبيل يحفظ السنة المطهرة من الخطأ أو التحريف ، فآثروا الاعتدال فى الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتشدد عمر رضى الله عنه فى هذا خشية الخطأ ،

(١) مسند الإمام أحمد ، ص ٧٤ ، ج ٢ .
(٢) لقد فصلنا القول فى هذا فى كتابنا « السنة قبل التدوين » .
(٣) المائدة : ٣ .

لهذا نرى بعضهم – مع كثرة تحملهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم – لا يكثر من الرواية آنذاك ، وكانوا يتورعون من الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكثيراً ما كان بعضهم تغرورق عيونهم بالدموع عندما يقولون : ( قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ) ، وكثيراً ما كانوا يقولون بعد الحديث ( أو كما قال ) ، قال عبد الرحمن بن أبي ليلى : ( أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ما منهم أحد يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه إياه ، ولا يستفتى عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه إياه)وفى رواية :( يسئل أحدهم المسألة فيردها هذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول ) (١) .

هكذا تشدد الصحابة فى الحديث ، وأمسك بعضهم عن روايته كراهية التحريف ، أو الزيادة والنقصان فى الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن كثرة الرواية كانت فى نظر كثير منهم مظنة الوقوع فى الخطأ ، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد نهى رسول الله عن الكذب عليه ، وعن رواية ما يرى أنه كذب ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمداً فليتبوأ معقده من النار » ، وفى رواية : « من كذب على فليتبوأ مقعده من النار » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « من روى عنى حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » (٢) .

وكان الصحابة يخشون أن يقعوا فى الكذب عامة ، فكيف يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . .

وفى هذا يقول الإمام على رضى الله عنه : ( إذا حدثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً ، فلأن أخر من السماء أحب إلى من أن أكذب عليه . . . ) (٣) .

وقد طبع جميع الصحابة هذا المنهج ، حرصاً منهم على حفظ القرآن والسنة ، ومخافة أن يشتغل الناس برواية الحديث عن القرآن الكريم ، وهو

---

(١) مختصر كتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول ، ص ١٣ .
(٢) مقدمة التمهيد لابن عبد البر ، ص ١١ .
(٣) مسند الإمام أحمد ، ص ٤٥ ، جـ ٢ .

دستور الأمة ، فأرادوا أن يحفظ المسلمون القرآن جيداً ، ويعتنوا بالحديث الشريف الذى لم يكن قد دون كله فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كالقرآن الكريم ، فنهجوا منهج التثبت العلمى ولم يكثروا من الرواية مخافة الوقوع فى الخطأ ، وقد تشدد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى تطبيق هذا المنهج ، وعرف إتقان بعض الصحابة وحفظهم الجيد فسمح لهم بالتحديث .

ويجب ألا يفهم من هذا أن الصحابة امتنعوا عن رواية الحديث ، أو عن تبليغه ، إنما أبوا أن يكثروا من الرواية عند عدم الحاجة ، ومفهوم أنه لا يكون إكثار إلا عند عدم الحاجة إلى الإكثار . فكانوا جميعاً يتثبتون فى الحديث ، ويتأنون فى قبول الأخبار وأدائها ، وكانوا لا يحدثون بشىء إلا وهم واثقون من صحة ما يروون ، وقد حرصوا على المحافظة على الحديث بكل وسيلة تفضى إلى ذلك ، فاتبعوا منهجاً سليما يمنع الشوائب من أن تدخل السنة النبوية فتفسدها . وقد اهتموا اهتماماً كبيراً بالسنة النبوية ونشرها ، وإن الأخبار التى تروى عنهم فى هذا الشأن كثيرة جداً ، فكان يسأل بعضهم بعضاً عن الحديث ويرحلون من أجله ، قال ابن عباس: ( إنه كان يبلغنى الحديث عن الرجل ، فآتيه بابه وهو قائل (١) ، فأتوسد ردائى على بابه ، تسفى الريح على من التراب ، فيخرج فيقول : يا ابن عم رسول الله ما جاء بك ؟ ألا أرسلت إلى فآتيك ؟ فأقول : أنا أحق أن آتيك ، فأسأله عن الحديث . . ) (٢) .

وروى بعض الصحابة عن بعض ولم يكتفوا بدراسة الحديث فيما بينهم ، بل حثوا على طلبه وحفظه وحضوا التابعين على مجالسة أهل العلم والأخذ عنهم ، ولم يتركوا وسيلة لذلك إلا أفادوا منها . من هذا ما روى عن عمر رضى الله عنه قال : ( تفقهوا قبل أن تسودوا ) (٣) وقال : ( تعلموا الفرائض والسنة كما تتعلمون القرآن ) (٤) .

---

(١) أى وهو فى نوم الظهيرة ، من القيلولة والقائلة .

(٢) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ، ص ٢٤ ، ج ١ . وانظر ص ٢٤ : ب منه .

(٣) فتح البارى ، ص ١٧٥ ، ج ١ .

(٤) جامع بيان العلم وفضله ، ص ٣٤ ، ج ٢ .

وكان أبو ذر مثلا رائعاً لنشر الحق وتبليغ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى البخارى بسنده عنه أنه قال : ( لو وضعتم الصمصامة — ـ السيف الصارم — على هذه — وأشار إلى قفاه ـ ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها من النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن تجيزوا على لأنفذتها ) (١) . وما كان أبو ذر بدعاً فى الصحابة ، إنما كان أحد الألوف الذين ساهموا فى حفظ السنة ونشرها . وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب : ( تزاوروا وتذاكروا الحديث ، فإنكم إلاتفعلوا يدرس ) (٢) .

ووقف عمرو بن العاص على حلقة من قريش فقال : ( ما لكم طرحتم هذه الأغيلمة ؟ لا تفعلوا ، وأوسعوا لهم فى المجلس ، وأسمعوهم الحديث ، وأفهموهم إياه ، فإنهم صغار قوم أوشك أن يكونوا كبار قوم ، وقد كنتم صغار قوم فأنتم اليوم كبار قوم ) (٣) .

وازداد النشاط العلمى فى عصر الصحابة والتابعين ، وانتشرت حلقات العلم فى جميع المساجد ، فى مختلف الأمصار الإسلامية ، حتى إن حلقات أبى الدرداء فى جامع دمشق كانت تضم نيفاً وخمسمائة ألف طالب (٤) . قال أنس بن سيرين :(قدمت الكوفة قبل الجماجم ، فرأيت بها أربعة آلاف يطلبون الحديث)(٥) ، وزاد فى رواية فقال : (وأربعمائة قد فقهوا ) (٦) .

كما كانت حلقات العلم تعقد فى حمص وحلب والفسطاط والبصرة والكوفة واليمن ، إلى جانب حلقات ينبوع الإسلام فى مكة والمدينة ، فقد كانت فى المدينة كالروضة يختار منها طالب العلم ما يشاء (٧) .

---

(١) فتح البارى ، ص ١٧٠ ، ج ١ .
(٢) شرف أصحاب الحديث ، ص ٩٩ .
(٣) شرف أصحاب الحديث ، ص ٨٩ : ب .
(٤) التاريخ الكبير ( تهذيب ) لابن عساكر ، ص ٦٩ .
(٥) المحدث الفاصل ، ص ٨١ : أ . ووقعة الجماجم مشهورة ، كانت بين الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث سنة ( ٨٢هـ ) ، وفيها قتل عبد الرحمن وكثير من القراء . انظر تاريخ الطبرى ٥/١٥٧ ، ودير الجماجم بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها ، على طرف البر للسالك إلى البصرة . معجم البلدان ٤/١٣١ .
(٦) المحدث الفاصل ، ص ١٣٥ : ب .
(٧) انظر المحدث الفاصل ، ص ٩ : ب .

وكان التعليم فى تلك الحلقات يعتمد على أسس تربوية هامة ، تعتبر من أبرز الأسس فى التربية الحديثة (١) . ثم ما لبثت أن ظهرت دور الحديث فى العصور التالية ، فى معظم البلدان الإسلامية .

وفى عهد التابعين وأتباعهم ازداد النشاط العلمى لانتشار الصحابة فى الأمصار الإسلامية ، ثم ما لبث التابعون أن تصدروا للرواية ، وسلكوا سبيل الصحابة ، وساروا على نهجهم ، فكانوا على جانب عظيم من الورع والتقوى ، وليس بعيداً ما نقول لأنهم تخرجوا فى مدارس الصحابة تلامذة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتثبتوا فى قبول الحديث وروايته ، وكانت أمامهم عيونهم وصية الصحابة وكبار التابعين « إن هذا الحديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » ، ولهذا كانوا يرون الأمانة فى الذهب والفضة أيسر من الأمانة فى الحديث . فنسمع سليمان بن موسى يقول لطاوس : ( إن رجلا حدثنى بكيت وكيت ، فيقول له : إن كان ملياً فخذ منه ) (٢) وكان ابن عون يقول : ( لا يؤخذ هذا العلم إلا ممن شهد له بالطلب ) (٣) .

وكان يزيد بن أبى حبيب محدث الديار المصرية يقول : ( إذا سمعت الحديث فانشده كما تنشد الضالة ، فإن عرف فخذه ، وإلا فدعه ) (٤) .

وكانوا لا يأخذون الحديث إلا عن العدول الثقات ، ولا يأخذون الحديث عن غير أهله ، ولا عمن لا يعرف ما يروى ، قال الإمام مالك : ( لا يؤخذ العلم عن أربعة . ويؤخذ ممن سوى ذلك : لا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ، ولا من سفيه معلن بالسفه ، وإن كان من أروى الناس ، ولا من رجل يكذب فى أحاديث الناس وإن كنت لا تتهمه أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من رجل له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث ) (٥) وقال الإمام الشافعى :

---

(١) انظر : النشاط العلمى فى عصر الصحابة والتابعين فى كتابنا « السنة قبل التدوين » .
(٢) الجرح والتعديل ، ص ٢٧ ، ج ١ .
(٣) الجرح والتعديل ، ص ٢٨ ، ج ١ .
(٤) الجرح والتعديل ، ص ١٩ ، ج ١ .
(٥) المحدث الفاصل بين الراوى والواعى ، ص ٧٩ : أ — ب . والجرح والتعديل ، ص ٣٢ ، ج ١ .

( كان ابن سيرين ، وإبراهيم النخعى ، وطاوس وغير واحد من التابعين يذهبون إلى ألا يقبلوا الحديث إلا عن ثقة يعرف ما يروى ، ويحفظ ، وما رأيت أحداً من أهل الحديث يخالف هذا المذهب ) (١) .

لهذا اعتنى المحدثون بمعرفة أحوال الرواة وبلدانهم وسماعاتهم ، وسألوا عنهم ، وتكلموا فى الجرح والتعديل ، قال السخاوى : ( وأما المتكلمون فى الرجال فخلق من نجوم الهدى ، ومصابيح الظلام المستضاء بهم فى دفع الردى ، لا يتهيأ حصرهم فى زمن الصحابة ، سرد ابن عدى فى مقدمة كاملة خلقاً إلى زمنه ( ٢٧٧ — ٣٦٥ هـ ) ، فالصحابة الذين أوردهم : عمر ، وعلى ، وابن عباس ، وعبد الله بن سلام ، وعبادة بن الصامت ، وأنس ، وعائشة ، رضى الله عنهم . . وسرد من التابعين عدداً كالشعبى ، وابن سيرين ، وسعيد بن المسيب ، وابن جبير ، ولكنهم فيهم قليل بالنسبة لمن بعدهم لقلة الضعف فى متبوعهم ، إذ أكثرهم صحابة عدول ، وغير الصحابة من المتبوعين أكثرهم ثقات . ولا يكاد يوجد فى القرن الأول الذى انقرض فيه الصحابة وكبار التابعين ضعيف إلا الواحد بعد الواحد ، كالحا ث الأعور والمختار الكذاب ) (٢) . وكان المحدثون يبينون أحوال الرواة وينقدونهم ويعدلونهم حسبة لله ، لا تأخذهم خشية أحد ولا تتملكهم عاطفة ، فليس أحد من أهل الحديث يحابى فى الحديث أباه ولا أخاه ولا ولده . سئل زيد بن أبى أنيسة عن أخيه فقال : ( لا تأخذوا عن أخى ) (٣) ، وسئل على بن المدينى عن أبيه فقال : ( سلوا عنه غيرى ، فأعادوا المسألة ، فأطرق ، ثم رفع رأسه فقال : هو الدين ، إنه ضعيف ) (٤) .

وكانوا يأمرون طلابهم وإخوانهم أن يبينوا أحوال الرواة ، قال عبد الرحمن بن مهدى : ( سألت شعبة وابن المبارك والثورى ومالك بن أنس

---

(١) مقدمة التمهيد ، ص ١٠ : ب .
(٢) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ١٦٣ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ، ص ١٢١ ، ج ١ .
(٤) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ٦٦ .

عن الرجل يتهم بالكذب ، فقالوا : انشره ، فإنه دين ) (١) ، وقال يحيى ابن سعيد : ( سألت سفيان الثورى وشعبة ، ومالكاً ، وابن عيينة عن الرجل لا يكون ثبتاً فى الحديث ، فيأتينى الرجل فيسألنى عنه ، قالوا : أخبر عنه أنه ليس بثبت ) (٢) .

وكان النقاد يدققون فى حكمهم على الرجال ، يعرفون لكل محدث ما له وما عليه ، قال الشعبى : ( والله لو أصبت تسعاً وتسعين مرة وأخطأت مرة لعدوا على تلك الواحدة ) (٣) .

وكانت المظاهر لا تغريهم ، وكل ما يهمهم أن يخلصوا العمل لله ، ويصلوا إلى الحق الذى ترتاح عنده ضمائرهم ، لخدمة الشريعة ، ودفع ما يشوبها ، وبيان الحق من الباطل ، قال يحيى بن معين : ( إنا لنطعن على أقوام لعلهم قد حطوا رحالهم فى الجنة منذ أكثر من مائتى سنة ) (٤) قال السخاوى : ( أى أناس صالحون ، ولكنهم ليسوا من أهل الحديث ) (٥) .

هكذا بين جهابذة علم الحديث — منذ صدر الإسلام إلى عهد التدوين والتصنيف — أحوال الرواة : المقبول منهم والمتروك ، وألفت مصنفات ضخمة فى الرواة وأقوال النقاد فيهم ، حتى إنه لم يعد يختلط الكذابون والضعفاء بالعدول الثقات ، كما ألفت مصنفات ومعاجم خاصة بالضعفاء والمتروكين ، وأصبح من السهل جداً على أصحاب الحديث أن يميزوا الخبيث من الطيب فى كل عصر ، وقد بنى النقاد حكمهم فى الرواة على قواعد دقيقة ، فقدموا للحضارة الإنسانية أعظم إنتاج فى هذا المضمار ، يفخر به المسلمون أبد الدهر ، وتعتز به الأمة الإسلامية التى شهد لها كبار العلماء بأياديها البيضاء فى خدمة السنة الشريفة ، قال المستشرق الألمانى « شبرنجر »

---

(١) مقدمة التمهيد ، ص ١٢ : ب .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ، ص ٩٢ ، ج ١ .
(٣) تذكرة الحفاظ ، ص ٧٧ ، ج ١ .
(٤) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ، ص ١٦٠ : أ .
(٥) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ٥٢ .

فى تصدير كتاب الإصابة لابن حجر — طبعة كلكتا سنة ١٨٥٣ — ١٨٦٤ م —:
( لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة ، كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة أتت فى علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون فى هذا العلم العظيم الخطر الذى يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشئونهم . . ) .

وقد ظهرت تلك المصنفات منذ أواخر القرن الهجرى الثانى وطلائع القرن الثالث .

وإلى جانب هذا فقد التزم العلماء رواية الحديث بأسانيده ، وكانوا يتثبتون من صحة الأحاديث بالارتحال إلى الصحابة وكبار التابعين ، ويقارنون بين طرق الأحاديث ، ومتونها ، ويعرفون زيادات الرواة فيهما ، كما قسموا الأحاديث درجات يعرف بها المقبول من المردود ، والقوى من الضعيف .

فلم تصلنا الأحاديث فى أمهات مصادرها إلا بعد جهود عظيمة بذلها أسلافنا العظام ، الذين خدموا السنة خدمة جليلة ، وتفانوا فى سبيل حفظها وصيانتها .

وقد هيأ الله عز وجل لحفظ شريعته حفاظاً متقنين ضابطين ، نقلوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحفظوا على الأمة شريعتها ودينها ، فى مختلف العصور منذ عصر الصحابة إلى ما بعد التدوين وظهور مصنفات الحديث العظيمة . وقد وهب الله تعالى لهؤلاء الحفاظ حوافظ قوية ، وإن التاريخ يروى لنا ما كان يحفظه أبو هريرة ، وعبد الله ابن عمر وأنس بن مالك ، وعائشة أم المؤمنين التى كانت آية من آيات الذكاء والحفظ ، وعبد الله بن عباس الذى اشتهر بسرعة حفظه ، حتى إنه كان يحفظ الحديث من مرة واحدة ، وقد سمع قصيدة لابن أبى ربيعة عدتها ثمانون بيتاً فحفظها من المرة الأولى ، وفى الصحابة أمثاله كزيد بن ثابت الذى حفظ معظم القرآن قبل بلوغه . وتعلم لغة اليهود فى سبعة عشر يوماً . وجابر بن عبد الله ، وأبى سعيد الخدرى وغيرهم من أعلام الصحابة فى الحفظ والضبط والإتقان .

وفى التابعين نافع مولى عبد الله بن عمر الذى لم يخطىء فيما حفظ ، وأجمع النقاد على دقة حفظه ، وفيهم محمد بن سيرين ، وسعيد بن المسيب وابن شهاب الزهرى حفاظ عصرهم ، وعامر الشعبى ديوان زمانه ، وقتادة ابن دعامة السدوسى مضرب المثل فى سرعة الحفظ والضبط والإتقان ، وغيرهم من التابعين .

وأما فى عهد أتباع التابعين ومن بعدهم فقد كثر الحفاظ كثرة عظيمة ، واتسع النشاط العلمى حتى إنه ما كانت تخلو مدينة من كبار الحفاظ الذين تشد الرحال إليهم ، أمثال سفيان الثورى ، والإمام مالك بن أنس ، وسفيان ابن عيينة ، وعبد الله بن المبارك ، ويحيى بن سعيد القطان ، وعلى بن المدينى ، وإسحاق بن راهويه ، والإمام أحمد ، والإمام البخارى ، ومسلم ، وأبى حاتم الرازى ، وأبى زرعة وغيرهم من أئمة الحديث وحفاظه .

وقد ساهمت الأقلام والدفاتر فى حفظ الحديث إلى جانب حفظه فى الصدور ، فمنذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب عبد الله ابن عمرو بن العاص صحيفته الصادقة بين يديه صلى الله عليه وسلم ، كما سمح لغيره ممن لا يحفظ بالكتابة كسماحه ( لأبى شاه ) اليمنى ، كما أن كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم كتبوا بين يديه الكريمتين بعض الأحكام إلى أمرائه وولاته فى البلدان .

وأما ما ورد من نهى عن الكتابة فقد كان خشية إلتباس القرآن بالسنة ، وخوفاً من أن ينشغل الناس آنذاك عن القرآن الكريم ، وقد سمح الرسول لبعض المتقنين بالكتابة ، كما سمح لمن لا يقدر على الحفظ أن يكتب ، ثم أبيحت كتابة الحديث ، ولهذا كان كثير من التابعين يكتبون بين يدى الصحابة ، كما كان عند بعض الصحابة بعض الصحف التى فيها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كالصحيفة التى كانت فى قائم سيف أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، والصحيفة التى وجدت فى قائم سيف أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، والكتاب الذى كتبه أبو بكر الصديق لأنس بن مالك فى الصدقات التى فرضها الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما كان عند

سعد بن عبادة الأنصارى ( — ١٥ هـ ) كتاب أو كتب فيها طائفة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مثل ذلك عند أبى رافع مولى الرسول الكريم ، وعند غيره ، وإن المقام يضيق عن حصر ما كتب فى عهد الصحابة والتابعين (١) ، ومع هذا لابد من الإشارة إلى أن صحيفة عبد الله ابن عمرو ، وهى (الصحيفة الصادقة ) قد دونت فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن أشهر ما دون فى عصر الصحابة صحيفة جابر بن عبد الله الأنصارى ( ١٦ ق هـ — ٧٨ هـ ) ولعل بعضها دون فى عهده صلى الله عليه وسلم ، و ( الصحيفة الصحيحة ) التى أملاها أبو هريرة على همام بن منبه وغيرها من الصحف التى كانت عند عروة بن الزبير ، وخالد بن معدان الكلاعى ، وأبى قلابة ، والحسن البصرى ، وكثرت كتب العلماء حتى بلغت كتب الصحابى الجليل عبد الله بن عباس حمل بعير . وقد نقلت كتب الزهرى بعد مقتل الوليد بن يزيد الأموى ( ٨٨ — ١٢٦ هـ ) من خزائنه على الدواب ، وقد شاع التدوين فى مطلع القرن الهجرى الثانى بين العلماء ، وأصبح من النادر ألا ترى لأحدهم تصنيفاً أو جامعاً فيه بعض أبواب الحديث .

وقد تبنت الدولة رسمياً فى عهد عمر بن عبد العزيز تدوين الحديث ، فكتب إلى الأمصار يأمر العلماء بجمعه وتدوينه ، وكان فيما كتبه لأهل المدينه : ( انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاكتبوه ، فإنى خفت دروس العلم وذهاب أهله ) ، وكتب إلى أمير المدينة ، أبى بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم ( — ١١٧ هـ ) : (اكتب إلى بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبحديث عمرة ، فإنى خشيت دروس العلم ، وذهاب أهلـه ) .

كما أمر ابن شهاب الزهرى ( — ١٢٤ هـ ) وغيره بجمع السنن ، فكتبوها له ، وكان ابن شهاب أحد الأعلام الذين شاركوا فى جمع الحديث والكتابة . قال : ( أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن ، فكتبناها دفتراً دفتراً فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً ) ...

---

(١) بسطت القول فى هذا فى كتابى « السنة قبل التدوين » تحت عنوان « أشهر ما دون فى صدر الإسلام » .

وقد تبين لى من متابعة بحث التدوين أن عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز حين ولى إمرة مصر — كتب إلى محدث حمص التابعى الجليل كثير بن مرة الحضرمى ، الذى أدرك سبعين بدرياً من الصحابة — أن يكتب إليه بما سمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حديث أبى هريرة فإنه كان عنده ، ولا يظن بكثير إلا أن يستجيب لطلب الأمير ، فيجتمع له بهذا ما كان عنده من حديث أبى هريرة وما عند كثير . ويكون ما فعله الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد هذا — من العناية بالحديث ومطالبة العلماء فى الأمصار المختلفة بكتابته والجلوس لمدارسته — ليس إلا امتداداً لما شرع فيه أبوه من قبل .

ولم يلبث تيار النشاط العلمى ، وكتابة الحديث أن طالع العالم بمدونات حديثية مختلفة ، على يدى علماء النصف الأول من القرن الهجرى الثانى ، وقد ظهرت هذه المصنفات فى أوقات متقاربة فى مختلف مناطق الدولة الإسلامية .

فكان أول من صنف فى مكة عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصرى ( — ١٥٠ هـ ) ، وأول من صنف فى المدينة المنورة مالك بن أنس ( ٩٣ — ١٧٩ هـ ) ، ومحمد بن إسحاق ( — ١٥١ هـ ) ، ومحمد بن عبد الرحمن ابن أبى ذئب ( ٨٠ — ١٥٨هـ ) ، وقد صنف موطأ أكبر من موطأ الإمام مالك .

وأول من صنف بالبصرة الربيع بن صبيح ( — ١٦٠ هـ ) ، وسعيد بن أبى عروبة (—١٥٦هـ) ، وحماد بن سلمة ( — ١٧٦ هـ ) وصنف سفيان بن سعيد الثورى ( ٩٧—١٦١هـ ) بالكوفة ، ومعمر بن راشد ( ٩٥—١٥٣هـ ) باليمن ، والإمام عبد الرحمن عمرو الأوزاعى ( ٨٨ — ١٥٧ هـ ) بالشام ، وعبد الله ابن المبارك ( ١١٨ — ١٨١ هـ ) بخراسان ، وهشيم بن بشير ( ١٠٤— ١٨٣ هـ ) بواسط ، وجرير بن عبد الحميد ( ١١٠ — ١٨٨ هـ ) بالرى ، وعبد الله ابن وهب ( ١٢٥ — ١٩٧ هـ ) بمصر كما لا أشك فى أن الليث بن سعد المصرى الفقيه الإمام المشهور ( — ١٧٥ هـ ) كان قد جمع وصنف ، لما عرف عنه من نشاط علمى واسع وصلة دائمة بعلماء المشرق الإسلامى . ثم تلاهم كثير من أهل العلم فى عصرهم فى النسج على منوالهم ، وقد كان هذا التصنيف بالنسبة إلى جمع الأبواب وضمها إلى بعضها فى مؤلف ،

أو مصنف أو جامع ، وأما جمع حديث إلى مثله فى باب واحد ، فقد سبق إليه التابعى الجليل عامر بن شراحيل الشعبى ( ١٩ - ١٠٣ هـ ) .

وكان معظم تلك المصنفات ، والمجاميع يضم الحديث الشريف وفتاوى الصحابة والتابعين ، كما هو واضح فى موطأ الإمام مالك بن أنس الذى يضم ثلاثة آلاف مسألة وسبعمائة حديث .

ثم رأى بعض الحفاظ أن تفرد أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فى مؤلفات خاصة ، فألفت المسانيد ، وهى كتب تضم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسانيدها ، خالية من فتاوى الصحابة والتابعين ، تجمع فيها أحاديث كل صحابى - ولو كانت فى مواضيع مختلفة - تحت اسم مسند فلان ، ومسند فلان ، وهكـذا .

وأول من ألف المسانيد أبو داود سليمان بن الجارود الطيالسى ( ١٣٣ - ٢٠٤ هـ ) ، وتابعه بعض من عاصره من أتباع التابعين وأتباعهم ، فصنف أسد بن موسى ( - ٢١٢ هـ ) ، وعبيد الله بن موسى العبسى ( - ٢١٣ هـ ) وغيرهم ، واقتفى آثارهم أئمة الحفاظ كأحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ) وإسحاق بن راهويه ( ١٦١ - ٢٣٨ هـ ) ، وعثمان بن أبى شيبة ( ١٥٦ - ٢٣٩ هـ ) وغيرهم .

ويعتبر مسند الإمام أحمد - وهو من أتباع أتباع التابعين - أوفى تلك المسانيد وأوسعها . وكان هؤلاء الأئمة والحفاظ قد جمعوا الحديث ودونوه بأسانيده ، واجتنبوا الأحاديث الموضوعة ، وذكروا طرقاً كثيرة لكل حديث ، يتمكن بها رجال هذا العلم وصيارفته من معرفة الصحيح من الضعيف ، والقوى من المعلول ، مما لا يتيسر لكل طالب علم ، فرأى بعض الأئمة الحفاظ أن يصنفوا فى الحديث الصحيح فقط ، فصنفوا كتبهم على الأبواب ، واقتصروا فيها على الحديث الصحيح ، ومن أجل ذلك تكبدوا عناء السفر ، والرحلة فى طلب الحديث والبحث ، ولقاء الشيوخ العدول الثقات الضابطين ، ومن يطلع على سير بعض أئمة الحديث وحفاظه يدرك الجهود العظيمة التى بذلت فى سبيل حفظ السنة . وهكذا ظهرت الكتب الستة فى

ذاك العصر ، عصر أتباع أتباع التابعين : وكان أول من صنف الصحيح الإمام البخارى ثم تبعه بعض أئمة عصره ، ومن تلاهم . وسنذكر لمحة موجزة عن مؤلفى الكتب الستة وكتبهم :

## ١ — الإمام البخارى ( ١٩٤ — ٢٥٦هـ )(١) :

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة (٢) الجعفى البخارى ، أمير المؤمنين فى الحديث . ولد يوم الجمعة (١٣ شوال سنة ١٩٤ هـ) فى مدينة بخارى ، وأول سماعه الحديث سنة (٢٠٥ هـ) ، وحفظ تصانيف عبد الله بن المبارك وهو صغير ، وسمع مرويات بلده من محمد بن سلام ، والمسندى ، ومحمد بن يوسف البيكندى ، ورحل مع أمه وأخيه حاجاً سنة ( ٢١٠ هـ ) ، فألف بالمدينة كتاب التاريخ الكبير ، وهو مجاور قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وزاد على هذا الكتاب مرتين فى آخر حياته ، ورحل البخارى إلى شيوخ الحديث وأئمته ، فذهب إلى بغداد ، والبصرة ، والكوفة ، ومكة ، والشام ، وحمص ، وعسقلان ، ومصر ، وكتب عن أكثر من ألف رجل ، وكان رأساً فى الذكاء ، رأساً فى العلم ، والورع والعبادة .

وكان البخارى يحفظ مائة ألف حديث صحيح ، ومائتى ألف حديث غير صحيح . وكان واسع المعرفة غزير العلم ، قال لسليم بن مجاهد : ( . . ولا

---

(١) أهم مصادر ترجمته ، والتعريف بصحيحه : تاريخ بغداد ، ص ٤ وما بعدها ، جـ ٢ . وتذكرة الحفاظ ، ص ١٢٢ وما بعدها ، جـ ٢ . وسير أعلام النبلاء ، ص ٢٣٤—٢٥٤ ، جـ ٨ . وطبقات الشافعية ، ص ٢ وما بعدها ، جـ ٢ . وتاريخ دمشق لابن عساكر ، مخطوطة دار الكتب المصرية النسخة التيمورية ، ص ١١٠ وما بعدها ، جـ ٣٧ . وتهذيب التهذيب ، ص ٤٧ وما بعدها ، جـ ٩ . وتدريب الراوى ، ص ١٢ وص ٤٩ . وتاريخ الأدب العربى ص ١٦٥ ، جـ ٣ .

وانتدبت وزارة الثقافة والإرشاد أستاذنا الدكتور مصطفى زيد لتأليف كتاب فى الإمام البخارى تنشره فى سلسلة أعلام العرب ، أرجو أن يصدر قريباً لينتفع الناس به ، ويأخذ مكانه فى المكتبة العربية .

(٢) بردزبه : بفتح الباء وسكون الراء ، وكسر الدال ، وبعدها زاى ساكنة ، معناه بالفارسية الفلاح ، أو البستانى .

أجيئك بحديث عن الصحابة أو التابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ، ووفاتهم ومساكنهم ، ولست أروى حديثاً من حديث الصحابة أو التابعين إلا ولى فى ذلك أصل أحفظه حفظاً عن كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ) .

وأخباره مع شيوخه وأهل العلم ، وأخبار حفظه وإتقانه كثيرة جداً نكتفى منها بما حصل له عندما قدم بغداد .

كان صيت البخارى قد ذاع فى مختلف البلدان ، وعندما قدم بغداد أراد أهل الحديث امتحانه فعمدوا إلى مائة حديث ، فقلبوا متونها وأسانيدها ، وجعوا متن هذا الإسناد هذا ، وإسناد هذا لمتن ذاك ، ودفعوا إلى كل واحد عشرة أحاديث ليلقوها عليه فى المجلس ، فاجتمع الناس ، وانتدب أحدهم فقام وسأله عن حديث من تلك العشرة ، فقال : لا أعرفه ، ثم سأله عن آخر : فقال : لا أعرفه ، حتى فرغ من العشرة ، والبخارى يقول : لا أعرفه . ثم انتدب آخر من العشرة ، فكان حاله معه كذلك إلى تمام العشرة ، والبخارى لا يزيدهم على قوله : لا أعرفه ، فكان الفقهاء يلتفت بعضهم إلى بعض ، ويقولون : الرجل فهم ، وأما غيرهم فلم يدركوا ذلك ، ولما فرغوا من إلقاء الحديث عليه ، التفت إلى الأول فقال : أما حديثك الأول فهو كذا ، وحديثك الثانى كذا ، إلى آخر العشرة ، فرد كل متن إلى إسناده ، وفعل بالثانى مثل ذلك إلى أن فرغ ، فأقر له الناس بالحفظ والضبط والإتقان .

خرج البخارى فى آخر حياته إلى قرية ( خرتنك ) وهى على فرسخين من سمرقند ، وتوفى بها فى (٣٠ رمضان سنة ٢٥٦ هـ ) رحمه الله .

**الجامع الصحيح :**

صنف الإمام البخارى كتابه فى ستمائة ألف حديث ، فى ست عشرة سنة ، وماوضع فيه حديثاً إلا وصلى ركعتين وقال : (جعلته حجة بينى وبين الله سبحانه ) :

وعدة أحاديث صحيح البخارى ( ٧٢٧٥ ) حديثاً بالمكررة ، وبحذف

المكرر منها أربعة آلاف حديث . وقد سمع كتاب البخارى تسعون ألف رجل من أهل عصره .

ويعتبر صحيح البخارى أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل . وقد أجمعت الأمة الإسلامية على عظيم منزلته ، فكان منها محل حفظ وعناية ودراسة وتقدير . وكان يقرأ على الناس فى المحافل العامة بالقاهرة فى شهر رمضان زمن المماليك ، وتقام احتفالات كبيرة عند ختام قراءته ، وكان الناس فى الجزائر يحلفون بالبخارى وكتاب الشفاء للقاضى عياض ، وفى الصعيد كان صحيح البخارى شفاء الأسقام ، يحلف الناس به ، ويحترمونه ، والحلف به عظيم لا يقل عن الحلف بالقرآن الكريم ، ولا يزال صحيح البخارى فى منزلة عالية جليلة فى الصعيد حتى الآن .

وكانت فرق الجند التى تستحلف على صحيح البخارى عند الخدمة فى الجيش ببلدان المغرب — تسمى البخارية .

وللبخارى مؤلفات حديثية كثيرة أشهرها التاريخ الكبير فى ثمانى مجلدات (١) ، والتاريخ الصغير (٢) ، وكتاب الضعفاء (٣) ، والأدب المفرد (٤) ، وله مصنفات فى علل الحديث ، وأسامى الصحابة ، والكنى تبلغ عشرين مؤلفاً ذكرها الحافظ ابن حجر فى مقدمة فتح البارى .

* * *

**٢ — الإمام مسلم ( ٢٠٤ — ٢٦١هـ) (٥) :**

هو حجة الإسلام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ،

(١) فيه ترجمة حوالى (٤٠) ألف رجل وامرأة ، ضعيف وثقة . وطبع فى حيدر آباد أعتباراً من سنة ( ١٣٦١هـ ) .

(٢) طبع بالهند سنة ١٣٢٥هـ .

(٣) طبع بالهند سنة ( ١٣٢٥هـ ) وطبع معه كتاب الضعفاء والمتروكين للنسائى .

(٤) طبع أكثر من مرة أحسنها ما طبع بالقاهرة سنة ١٣٧٩هـ بإشراف الأستاذ محب الدين الخطيب الذى استوفى تخريج أحاديثه وفهارسه .

(٥) أهم مصادر ترجمته والتعريف بكتابه : تاريخ بغداد ، ص ١٠—١٤ ، ج ١٣ . تذكرة الحفاظ ، ص ١٥٠ — ١٥٢ ، ج ٢ . وتهذيب التهذيب ، ص ١٢٦ ج ١٠ . والبداية والنهاية ، ص ٣٣ ، ج ١١ . وتدريب الراوى ، ص ٤٢ وما بعدها . والباعث الحثيث ، ص ٢٢ . وشروط الأئمة الستة للمقدسى . وشروط الأئمة الخمسة للحازمى .

صاحب التصانيف الكثيرة ، ولد سنة ( ٢٠٤ هـ ) وقيل سنة ( ٢٠٦ هـ ) ، كان أول سماعه سنة ( ٢١٨ هـ ) وقدم بغداد مراراً ، وكان آخر قدومه إليها سنة ( ٢٥٩ هـ ) ، ولقى كثيراً من شيوخ الحديث وحفاظه أثناء رحلاته إلى الحجاز ، والعراق ، والشام ، ومصر وغيرها ، وتردد على الإمام البخارى كثيراً عندما قدم البخارى نيسابور ، وعرف فضله وغزير علمه ، وروى عن كثير من أئمة الحفاظ منهم : يحيى بن يحيى ، والقعنبى ، وأحمد بن يونس ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه شيخ البخارى وغيرهم ، وروى عنه كثير من أهل العلم منهم : ابن خزيمة ، ويحيى بن صاعد ، وعبد الرحمن ابن أبى حاتم ، وكان أبو زرعة وأبو حاتم الرازيان يقدمان مسلم بن الحجاج فى معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما .

وتوفى الإمام مسلم يوم (٢٥ رجب سنة ٢٦١ هـ ) فى ( نصر آباد ) من قرى نيسابور . رحمه الله .

وقد صنف الإمام مسلم صحيحه من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة ، وفيه بإسقاط المكرر نحو أربعة آلاف حديث . وكتابه أصح كتاب بعد صحيح الإمام البخارى ، ولكل من الصحيحين فوائد عظيمة من حيث كثرة الطرق وجمعها ، وترجمة الأبواب وغير ذلك مما بينته كتب الشروح وعلوم الحديث .

وللإمام مسلم مؤلفات كثيرة غير الصحيح منها : كتاب الأسماء والكنى ، وكتاب التمييز ، وكتاب العلل ، وكتاب الوحدان ، وكتاب الأفراد ، وكتاب الأقران ، وكتاب أولاد الصحابة ، وغير ذلك من الكتب المفيدة فى الحديث وعلومه (١) .

(١) انظر تذكرة الحفاظ ، ص ١٥١ – ١٥٢ .

### ٣ - أبو داود السجستانى ( ٢٠٢ - ٢٧٥ هـ )(١) :

هو الإمام الثبت سيد الحفاظ سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدى السجستانى ، صاحب السنن المشهورة . ولد أبو داود سنة ( ٢٠٢ هـ ) ، وطلب العلم صغيراً ، ثم رحل إلى الحجاز والشام ومصر ، والعراق والجزيرة ، وخراسان ، ولقى كثيراً من أئمة الحفاظ ، فسمع من القعنبى ، وأبى الوليد الطيالسى ، وسليمان بن حرب ، والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم ، وكان أبو داود من العلماء العاملين ، وشبهه بعض الأئمة بالإمام أحمد ، وكان على درجة عظيمة من العبادة والعلم والورع .

وكان قد دخل بغداد مراراً ، وآخر مرة دخلها سنة ( ٢٧٢ هـ ) ، ودعاه أمير البصرة أخو الخليفة الموفق أن يقيم بالبصرة ، بعد فتنة الزنج ، لتعتمر من العلم بسببه ، حين يأتيه طلاب الحديث من كل حدب وصوب . فنزل بها ، وتوفى فيها فى (١٦ شوال سنة ٢٧٥ هـ ) .

وقد صنف أبو داود سننه على أبواب الفقه ، واقتصر فيها على السنن والأحكام ، فلم يذكر الأخبار والقصص والمواعظ ، قال : (كتبت عن النبى صلى الله عليه وسلم خمسمائة ألف حديث ، انتخبت منها أربعة آلاف حديث وثمانمائة حديث ضمنتها هذا الكتاب ) . وقال :(ما ذكرت فى كتابى حديثاً أجمع الناس على تركه). وكان قد عرض كتابه على الإمام أحمد فاستحسنه . وقد أثنى عليه كثير من أئمة هذا العلم ، وهو أول كتاب بعد الصحيحين . وله مؤلفات غير د فى هذا العلم الجليل .

* * *

### ٤ - الإمام الترمذى ( ٢٠٩ - ٢٧٩هـ )(٢) :

هو الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ،

---

(١) تذكرة الحفاظ ، ص ١٥٢ ، ج ٢ . وتاريخ بغداد ، ص ٥٥ ، ج ٩ . وشروط الأئمة الستة للمقدسى ، وشروط الأئمة الخمسة للحازمى ، ورسالة أبى داود السجستانى إلى أهل مكة ، بتحقيق الشيخ زاهد الكوثرى . وتدريب الراوى ، ص ١٢ .

(٢) أهم مصادر ترجمته والتعريف بكتابه : تذكرة الحفاظ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ ، ج ٢ . تهذيب التهذيب ، ص ٣٨٧ ، ج ٩ . شروط الأئمة الستة للمقدسى ، طبع القدسى . وشروط الأئمة الخمسة للحازمى ، طبع القدسى . وتيسير الوصول إلى جامع الأصول ، ص ٩ ، ج ١ . والباعث الحثيث ص ٤٣ . وسنن الترمذى بتحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر ، ص ٧٧ - ٩١ ، ج ١ .

ولد بعد سنة مائتين فى قرية ( بوج ) من قرى ترمذ على نهر جيحون ، وطلب العلم صغيراً ، ورحل فى سبيل ذلك إلى العراق والحجاز وخراسان وغيرها ، ولقى كبار أئمة الحديث وشيوخه ، منهم الإمام البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، وسمع من بعض شيوخهم مثل قتيبة بن سعيد ، ومحمد بن بشار وغيرهما . وروى عنه خلق كثير .

وقد شهد له معاصروه وأهل العلم بالحفظ والضبط والإتقان ، وكان على جانب عظيم من الزهد والورع ، بكى حتى عمى ، وبقى ضريراً سنين آخر عمره . وقال له البخارى : ( ما انتفعت بك أكثر مما انتفعت بى ) . وتوفى بترمذ ليلة الإثنين ( ١٣ رجب سنة ٢٧٩ هـ ) وله سبعون سنة رحمه الله .

وقد جمع الترمذى الفقه إلى جانب علمه بالحديث وعلله ورجاله وعلومه ، ويظهر هذا واضحاً فى كتابه ( الجامع الصحيح ) المعروف بسنن الترمذى ، وكتابه هذا من أحسن الكتب ، وأكثرها فائدة وأقلها تكراراً ، قال الترمذى رحمه الله : عرضت هذا الكتاب على علماء الحجاز والعراق وخراسان ، فرضوا به واستحسنوه ، ومن كان فى بيته فكأنما فى بيته نبى يتكلم .

وللترمذى كتاب : الشمائل ، والعلل ، والتاريخ ، والزهد .

* * *

## ٥ — الإمام النسائى ( ٢١٥ — ٣٠٣هـ )(١) :

هو الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على بن سنان ابن بحر الخراسانى ، النسائى بفتح النون نسبة إلى بلدة بخراسان . ولد

---

(١) أهم مصادر ترجمته والتعريف بكتابه : تذكرة الحفاظ ، ص ٢٤١ ، ج ٢ . وتهذيب التهذيب ، ص ٣٦ — ٣٩ ، ج ١ . والبداية والنهاية ، ص ١٢٣ ، ج ١١ . وطبقات الشافعية ، ص ٨٣ ، ج ٢ . وشروط الأئمة الخمسة للحازمى . وشروط الأئمة الستة للمقدسى ، وتيسير الوصول ، ص ٩ ، ج ١ . وتدريب الراوى ، ص ٤٩ .

سنة ( ٢١٥ هـ )،وطلب الحديث صغيراً ، ورحل إلى قتيبة بن سعيد وله خمس عشرة سنة عام ( ٢٣٠ هـ ) وأقام عنده سنة وشهرين ، وسمع إسحاق ابن راهويه ، وهشام بن عمار ، ومحمد بن النصر المروزى ، وأمثالهم ، ورحل إلى الحجاز والعراق ، ومصر والشام والجزيرة ، وبرع فى هذا الشأن ، وتفرد بالمعرفة والإتقان ، وعلو الإسناد ، واستوطن مصر وحدث عنه كثيرون ، وكان كثير العبادة فى الليل والنهار متمسكاً بالسنة ، ورعاً متحرياً . والراجح بالنسبة لوفاته أنه خرج من مصر فى شهر ذى القعدة سنة ( ٣٠٢ هـ ) وتوفى بفلسطين بالرملة يوم الإثنين (١٣ صفر سنة ٣٠٣ هـ ) ، ودفن ببيت المقدس ، رحمه الله .

وإلى جانب علمه بالحديث وعلومه ، كان فقيهاً ، شافعى المذهب ، وله مناسك على مذهب الإمام الشافعى . قال على بن عمر الحافظ : أبو عبد الرحمن النسائى مقدم على كل من يذكر فى زمانه فى هذا العلم .

وقد صنف سننه ولم يخرج فيها عن راو أجمع النقاد على تركه ، فكانت ( السنن الكبرى ) ، التى قدمها إلى أمير الرملة . فقال له : أكل ما فيها صحيح ؟ فقال : فيها الصحيح والحسن وما يقاربهما . فقال له : فاكتب لنا الصحيح منه مجرداً . فاستخلص من السنن الكبرى « السنن الصغرى » وسماها ( المجتبى من السنن ) ، وقيل المجتنى ، والمعنى واحد . والسنن الصغرى أقل السنن حديثاً ضعيفاً ، ولهذا كانت برتبة سنن أبى داود أو دونها بقليل ، ولم يذكر فى المجتبى من السنن ، كل حديث تكلم فى إسناده بالتعليل . وله عدة مؤلفات سوى السنن منها ( الضعفاء والمتروكون ) طبع بالهند سنة ( ١٢٣٥ هـ ) .

* * *

## ٦ — الإمام ابن ماجه ( ٢٠٩ — ٢٧٣هـ ) (١) :

هو الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ابن ماجه الربعى ، صاحب السنن والتفسير والتاريخ ومحدث قزوين فى عصره . ولد سنة ( ٢٠٩ هـ ) وسمع من أئمة عصره ، ورحل إلى العراق والحجاز ومصر والشام وغيرها من البلاد . وتوفى فى (٢٢ رمضان سنة ٢٧٣ هـ ) وصلى عليه أخوه أبو بكر ، وتولى دفنه أخواه أبو بكر ، وعبد الله ، وابنه عبد الله .

قال أبو يعلى الخليلى : ابن ماجه ثقة ، كبير ، متفق عليه ، محتج به ، له معرفة وحفظ .

صنف ابن ماجه سننه فجمع فيها الصحيح والحسن والضعيف والواهى ، لهذا لم يدخلها بعضهم فى الكتب الستة ، وأول من اعتبرها سادس الكتب الصحيحة الحافظ أبو الفضل بن طاهر المقدسى ( — ٥٠٧ هـ ) فى كتابه ( أطراف الكتب الستة ) ومن العلماء من جعل الموطأ أحد الكتب الستة . ومع هذا فلسنن ابن ماجه فوائد كثيرة كما قال الذهبى : ( سنن أبى عبد الله كتاب حسن ، لولا ماكدره أحاديث واهية ، ليست بالكثيرة ) .

وقد خدم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى هذه السنن وأحصى أحاديثها فكان جملة أحاديث سنن ابن ماجه ( ٤٣٤١ ) حديثاً . من هذه الأحاديث ( ٣٠٠٢ ) حديثاً أخرجها أصحاب الكتب الخمسة كلهم أو بعضهم . وباقى الأحاديث وعددها ( ١٣٣٩ ) حديثاً هى الزوائد على ما جاء فى الكتب الخمسة . وبيان الزوائد : .

أولا — ٤٢٨ حديث رجالها ثقات ، صحيحة الإسناد .

ثانياً — ١٩٩ حديث حسنة الإسناد .

ثالثاً — ٦١٣ حديث ضعيفة الإسناد .

---

(١) أهم مراجع ترجمته والقول فى كتابه : تذكرة الحفاظ ، ص ١٨٩ ، ج ٢ . وتهذيب التهذيب ، ص ٥٣٠ ، ج ٩ . وشروط الأئمة الستة للحافظ أبى الفضل محمد بن طاهر المقدسى ، طبع القدسى سنة ( ١٣٥٧هـ ) . وسنن ابن ماجه ، ص ١٥١٩ و ١٥٢٠ ، ج ٢ . وتدريب الراوى ، ص ٤٩ .

رابعاً - ٩٩ حديثاً واهية الإسناد أو منكرة ، أو مكذوبة :

ولهذا كان على الباحث ألا يأخذ بحديث من سنن ابن ماجة إلا بعد معرفة درجته ، وقد سهل الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى على الباحث التحرى والبحث بخدمته هذا الكتاب ، فجزاه الله عن المسلمين وأهل العلم كل خير .

كانت تلك لمحة سريعة موجزة حول الكتب الستة ومؤلفيها ، وهى لا تعدو قصد التعريف بتلك المصنفات الجليلة وبأصحابها ، وأما القول فى منهج مصنفيها وترتيب كتبهم وشروطهم فإنه يحتاج إلى كتاب خاص بذلك .

وقد لقيت هذه الكتب عناية كبيرة من أهل العلم بالشرح والاختصار والاستخراج عليها ، وما إلى ذلك . .

وهناك كتب جليلة فى الحديث سوى ما أسفلنا ذكره من الموطآت والمسانيد والصحاح ، ككتب الإمام ابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم ، والدارقطنى ، والبيهقى ، والبغوى ، وغيرهم من أئمة الحديث فى العصور المختلفة .

وقد طال بنا المطاف إلى راوية الإسلام ، فنكتفى بذلك ، لننتقل إلى موضوعنا المقصود أولا ، والله ولى التوفيق .

* * *